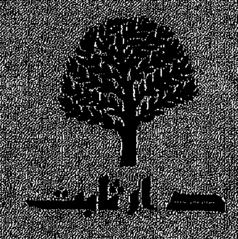
خالد محمد خالد

الدولة في الإسلام



دار ثابت







خالد محمد خالد

الدولة في الإسلام



دار ثابت

الطبعة الأولى { صفر ١٤٠١
يناير ١٩٨١

الناشر دار ثابت للنشر والتوزيع ٩٢ (أ) شارع محمد فريد ـــ القاهرة
ص.ب ٦ باب اللوق

بسم الله الرحمن الرحيم



وأنِ احكُم بينهم بما أنزل اللـــه

ولا تتّبع أهـــــواءهم

واحـــذَرْهم أن يَفتِنـــوك

عن بعض ماأنزل اللـــــه إليك

صدق الله العظيم



– ١ –

فى عــام ١٩٥٠م ظهــر اول كتــاب لى ، وكان عنــوانه : « من هنا .. نبــدأ » .

وكان ينتظم أربعة فصول ، كان ثالثها بعنوان : «قومية الحكم»

وفى هذا الفصل ذهبت أقرر أن الاســلام دين لا دولة ، وانه ليس فى حاجة الى ان يكون دولة .. وان الدين علامات تضيىء لنــا الطريق الى الله وليس قــوة سياسية تتحكم فى الناس ، وتأخــذهم بالقوة الى سواء السبيل . ما على الدين الا البلاغ وليس من حقه أن يقود بالعصا من يريد لهم الهدى وحسن ثواب .

وقلت : ان الدين حين يتحــول الى « حكومة » ، فان هــذه الحكومة الدينية تتحول الى عبء لا يطــاق . وذهبت أعدد يومئــذ ما أسميته : « غرائز الحــكومة الدينية » وزعمت لنفسى القدرة على اقامة البراهين على أنها أعنى الحكومة الدينية فى تسع وتســعين فى المائة من حالاتها جحيم وفوضى ، وأنها احدى المؤسسات التاريخية التى استنفدت أغراضها ولم يعد لها فى التاريخ الحديث دور تؤديه .

وكان خطئى أننى عممت الحديث حتى شمل الحكومة الاسلامية .

وقلت : ان غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل البعد ، ولخصت هذه الغرائز فى :

(١) الغموض المطلق ، اذ هى تعتمد فى قيامها على سلطة غامضة ، لا يعرف مأتاها ، ولا يدرك مداها ، وصلة الناس بها يجب أن تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق ..

(٢) ومن خصائصها — كما قلت يومذاك — أنها لا تثق بالذكاء الانسانى ولا تأنس له ، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته ، لانها تخافه وتخشاه .

(٣) وهى لكى تقنع الناس بضرورة قيامها وبقائها تهيب بجانب الضعف فيهم . فتلقى فى روعهم أن رواد الخير والحرية والفكر والاصلاح ليسوا سوى أعداء لله ولرسوله يحاولون نفى الدين عن المجتمع بنفى السلطة التى تمثله وتصونه .

(٤) والغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية ، وهى لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه . بل ولا مجرد لفت النظر فضلا عن المعارضة والنقد .

(٥) والوحدانية المطلقة اعتى غرائزها — وهى تحفزها الى مكافحة الرأى مهما يكن حكيما ، وقتل المعارضة مهما تكن مخلصة نافعة .

(٦) والجمود الذى تتسم به يجعلها تضيق بكل جديد لان صورة الدين فى ذهنها مرتبطة بكل ما هو جامد وقديم .

(٧) والقسوة المتوحشة هى سيدة غرائزها واكثرها عتــوا ونفوذا وانها لتحز عنقك وتهرق دمك وهى تصيح من فرط نشوتها : واها لريح الجنـــة ..

* * *

هكذا ذهبت انعت واهدم ما اسميته يومها بالحكومة الدينية . !

وهكذا اخــذت كل خصـــائص ونقـــائص الحكم الاتقــراطى الديكتاتورى وخلعته على ما اسميته « الحكومة الدينية » .. !!

ولم اكن يومئذ أخدع نفسي ولا ازيف اقتنـــاعى ، فليس ذلك والحمد لله من طبيعتى . انما كنت مقتنعا بما اكتب مؤمنا بصوابه .

وحين أرجع بذاكرتى الى الايام التى سطرت فيها هذا الراى وهذه الكلمات لا أخطىء التعرف الى العوامل التى تغشتنى بهــذا التفكير .. والكاتب حين يحيا بفكر مفتوح بعيدا عن ظلام التعصب وغواشى العناد ، فانه يستطيع دائما او غالبا أن يهتدى الى الصواب ويقترب من الحقيقـــة ويعانقها فى يقين جديد ، وحبور اكيـــد ، ونحن مطالبون بأن نفكر دائما ، ونراجع افكارنا ، وننكر ذواتنا ونتخلى عن كبريائنا أمام الحقائق الوافدة .. واذا لم نفعل فسنكون كما قـــال « افلاطون » :

« مجانين ، اذا لم نستطع ان نفـــكر .. » !!

« ومتعصبون ، اذا لم نرد أن نفـــكر .. » !!

« وعبيـــد اذا لم نجـــرؤ أن نفـــكر .. » !!

* * *

واحمد الله على اننى لست من المجانين ، ولا المتعصبين ، ولا العبيد .. ومن اجل هذا كان من اليسير على ان استقبل فى بشر ومودة هذا التفكير الجديد الذى واتانى من طول التامل والتمعن وتقليب وجوه النظر فى حياد سديد .

ترى ماذا كانت المقدمات التى اوصلتنى الى موقفى القديم من « الحكومة الدينية » ، او بتعبير اصح ماذا كانت البواعث النفسية والفكرية التى افضت بى الى ذلك الموقف .. ؟؟

واود — أولا — ان اشير الى ان تسمية « الحكومة الاسلامية» بالحكومة الدينية فيه تجن وخطأ . فعبارة « الحكومة الدينية » لها مدلول تاريخى يتمثل فى كيان كهنوتى قام فعلا ، وطال مكثه . وكان الدين المسيحى يستغل ابشع استغلال فى دعمه وفى اخضاع الناس له .

فالحكومة الدينية مؤسسة تاريخية نهضت على سلطان دينى بينما كانت اغراضها سياسية ، واصلت الناس سعيرا بسوء تصرفاتها وتحكمها .. وهى فى المسيحية واضحة كل الوضوح بينما الاسلام لم يشهد فى فترات استغلاله ما شهدته وما تكبدته المسيحية ، لا سيما فى العصور الوسطى ، عصور الظلام !!

ولعل اول خطأ تفشى منهجى الذى عالجت به قديما قضية الحكومة الدينية ، كان تاثرى الشديد بما قراته عن الحكومات الدينية التى قامت فى أوربا ، والتى اتخذت من الدين المسيحى دثارا تغطى به عريها وعارها ..

أجل . فانى استطيع ان الخص بواعثى فى ذلك التفكير القديم

واردها الى عاملين اثنين — كان هذا اولهما .. التأثر بما قرأته عن الحكومة الدينية المسيحية ، ولذلك تجدنى اقول فى كتابى « من هنا نبــــدأ » .

« .. ففى الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التى لا تخطر للشيطان نفسه ببال ، فكان الخازوق ، ووتد التشهير ، وصلم الآذان ، وتمزيق الجسد ، ومحاكم التفتيش ، وحرق العلماء بالنار وهم احياء !! » .

ثم قلت :

« وفى الحكومات الدينية الاسلامية حدثت اهــوال مروعة ، حتى ان حاكما دينيا واحدا — هو الحجاج — اباد البقية الكريمــة الصالحة من صحابة رسول الله، حتى قال عنه «عمر بن عبد العزيز»

« لو جاءت كــل امة بخطاياها ، وجئنا نحن بنى اميــة بالحجاج وحده لرجحناهم ... !!»

اذن ، فقد كنت فى قمة التأثر ببشاعة وجرائم الحكومة الدينية المسيحية ، ثم عكست الصورة فى غير حق على الحكام السياسيين فى الاسلام واعتبرتهم حكومة دينية اسلامية .. !!

ومضيت أدحض ما اعتبرته حكومة دينية فى الاســـلام بنفس القوة التى دحض بها الفكر الانسانى الرشيد الحكومة الدينية التى قامت فى ظل الكنيســة وكانت اكثر خطرا على المسيحية من الشيطان نفسه !!

من قال ان الحجاج حاكم دينى .. ؟ وهل فى الاسلام كهنوت

يستطيع ى حاكم ان يستمد منه سلطانا مطلقا وفى ذات الوقت يكون مقدسا . . ؟؟ لا . ومع هذا فقد اقتنعت قديما بهذا الذى يبدو لى اليوم تجنيا وخطــأ .

ان الاسلام حتى فى فترات استغلاله من بعض الخلفاء والحكام لم يمنح أيا منهم سلطة بابوية كهنوتية ، لانه لا يتسع لاى كهنوت لا فى تعاليمه ولا فى تطبيقاته .

من أجل هذا كان تسمية الحكومات الاسلامية المنحرفة بالحكومة الدينية وتحميل الاسلام وزرها أمر مجاف لكل صواب . .

* * *

اما العامل الثانى الذى شكل تفكيرى وموقفى من الحكومة الدينية فقد كان عاملا موقوتا بزمانه . ولكنى جعلت منه قاعدة عامة بنيت عليها حكمى القديم .

ذلك ان « الاخوان المسلمين » كانوا قد بلغوا خلال الاربعينات من الكثرة والقوة والنجاح مبلغا يكاد يكون منقطع النظير .

كانت دعوتهم تسرى بين الناس كالضــوء ، وكان الشــباب بصفة خاصة يقبل عليها اقبال أسراب النحل على رحيق الزهور !!

وذات يوم والجماعــة فى أوج مجـدها الباهـر ، لا ندرى هل انبثق منها، أو أقحم عليها وتسلل اليها ما سمىيومئذ بالتنظيم السرى . وارتكب هذا الجهــاز جرائم منكرة وتوســل بالاغتيالات لفــرض الدعوة . . الدعوة التى كانت قد حققت بالاقتنــاع والمنطق ما لم تحققه

دعوة أخرى . . والدعوة التى كانت لباقة مرشدها الاستاذ حسن البنا رحمه الله واخلاصه يفتحان له الآذان الصم والقلوب الغلف ، ويسلسان له قياد الجماهير كافتهم ومثقفيهم .

لفتت حوادث الاغتيال التى مارسها ذلك الجهاز السرى انتباه الناس وروعت أفئدتهم . وكنت من الذين أقض مضجعهم هذا النذير . وقلت لنفسى اذا كان هذا مسلك المتدينين وهم بعيدون عن الحكم ، فكيف يكون مسلكهم حين يحكمون ؟؟ !

وتذكرت كلمة المفكر الفرنسى « فولتير » :

« ان الذى يقول لك اليوم : اعتقد ما أعتقده والا لعنك الله ، سيقول لك غدا : أعتقد ما أعتقده والا قتلتك» !!!

على أن ذلك الجهاز السرى اختصر طريقه آنذاك فتخطى وتجاوز مرحلة اللعن الى مرحلة القتل والاغتيال !!

كان هذا هو العامل الثانى الذى جنح بتفكيرى الى التحذير من قيام اى حكومة دينية باسم الاسلام .

وكان هذا خطأ آخر وقعت فيه . .

كان الخطأ الاول مضاهاتى الحكومات الدينية الكنسية بحكم الإسلام .

وكان الخطأ الثانى تعميم نتائج ما اقترفه الجهاز السرى باسم الاسلام .

وفى كلا الخطأين كان هناك خطأ فى المنهج ذاته . فقد جملت ما تأثرت به من قراءاتى عن الحكومة الدينية فى المسيحية ، وما تأثرت

به من تحول بعض الشباب المسلم من نساك الى قتلة .. جعلت هذا وذاك «مصدر» تفكيرى ، لا «موضع» تفكيرى !! وفارق كبير بين أن تجعل الحدث أو الشىء مصدر تفكيرك وبين أن تجعله موضع تفكيرك .

عندما يكون مصدر تفكيرك فانه يقودك فى طريقـــه هو ، لا فى طريق الحقيقة . وتبصر نفسك من حيث تشعر أو لا تشعر مشدودا الى مقدمات وسائرا نحو نتائج لم يأخذ الاســـتقلال الفكرى حظه فى تمعنها ودراستها .

أما حين يكون الشىء موضع تفكيرك فانه يمد تفكيرك المحايد والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون أن يلزمك بحـــكم مسبق يتحرك الفكر داخل اطاره الحديدى الصارم .

الى هذا السبب الجوهرى أرد خطئى فيما أصدرته ــ قديما ــ من حكم ضد الحكومة فى الاســـلام ، هـــذه التى اسميتها بالحكومة الدينية .

— ٢ —

والآن ، وفى ضوء اقتناعى الجديد بأن الاسلام « دين ، ودولة »

فكيف وصلت الى هذه الحقيقة ؟؟ وما شـــكل هذه الدولة ؟؟ وما اغراضها واهدافها حين تقوم ؟؟

أما التقائى بهذه الحقيقة ، أو لنتواضع ولنقل هذه النتيجة .. فقد جمعنى بها فى لقاء سعيد ، العقل لا الوجدان .

لقد توارت الاسباب التى حدثتكم عنها من قبل ، واستقبلت القضية بعقل غير عصى ، ونفس تواقة الى معرفة الحق واعلانه بصوت جهير ، دون أن تجد غضاضة أو خجلا من ان تعترف بالخطأ وتواجه الصواب .

قلت لنفسى :

قبل أن يكون هناك اسلام كان هناك عرب . وهؤلاء العرب هم الرعيل الاول الذى حمل راية الاسلام ، وسار بها مشرقا ومغربا .. فهل كان أولئك العرب عنصرا مهيأ لان ينشىء « حكومة » او يتقبل تبعاتها ويحملها فى اقتدار .. ؟؟

هل وقعت للعرب قبل الاسلام تجربة مع الحكم فاسسوا دولا وحكومات ؟

انه على فرض انتفاء هذا الامر ، فلن يسلب الاسلام حقه ولا مقدرته على تأسيس دولة .

ذلك أن الاسلام جاء ليكون قوة تغيير عميمة وشاملة .. جاء فغير العقيدة والمجتمع والسلوك .

فحتى لو لم يكن للعرب سابقة مع الحكومة ، فان الاسلام بخصائصه قادر على تمكينهم من ممارسة هذه التجربة بنجاح .

ومع هذا فسنرى أن هؤلاء الذين نزل الاسلام اول ما نزل عليهم وفيهم ، كانوا وكان آباؤهم ممن انشأوا الممالك والامارات .

فقبل مجىء الاسلام بقرون ، كان هناك عرب لهم حكومات هم الذين انشأوها ، وحضارة هم الذين صنعوها .

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن (١) :

كان فى الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية مملكة سبأ وحمير وقد بلغت هذه البلاد قبل الميلاد بألفى سنة درجة من الحضارة تدل عليها أطلال المبانى الضخمة ، والنقوش الكثيرة . وهناك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة والابهة التى وصلت اليها مملكة سبأ .

كذلك كان هناك من العرب مملكة الحيرة ومملكة الغسانيين . وكان فى جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة ، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة فى الجنوب الشرقى .

وكان هناك مملكة « معين » وقد سبقت مملكة « سبأ » فى الظهور وكانت على جانب عظيم من البأس والقوة .

وتلتها فى الظهور مملكة سبأ التى اشتهرت بالثروة والقوة بين ممالك العالم فى ذلك الحين ، وبلغ من قوتها أن ردت جيوش « أوغسطس قيصر » عن أسوار مأرب ودحرتها .

وكان لها تجارة واسعة مع مصر ، وسوريا ، وبابل . . ولا تزال سدودها وأحواضها تثير اعجاب الرحالة والسائحين . وتدل آثارها وأطلال أبنيتها الفخمة على ما بلغته من العظمة والمجد .

وكان لها اسطول بحرى ينقل تجارتها الى حيث تريد ، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء الى الشام وفلسطين لنقل سلعها التجارية

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى ج ١ .

وكذلك كان هناك مملكتا الحيرة وغسان ، قامتا على حدود بادية الشام .

وكانت الامبراطورية الفارسية تستعين بمملكة الحيرة على حرب الروم . كما كان الرومان يستعينون بأمراء غسان على الفرس .. !!

وقد استمرت مملكة الحيرة من القرن الثالث الميلادى حتى ظهور الاسلام . وكان لاهلها اثر كبير فى الحضارة العربية . وتعاقب على ملكها خمسة وعشرون ملكا .

ويقول الدكتور أحمد سوسة فى كتابه « حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور » .

« تبدأ المرحلة الاولى من حضارة العرب القديمة فى حوالى اربعين الف سنة قبل الميلاد ، وتنتهى فى حوالى ثمانية عشر الف قبل الميلاد . وقد عاشت هذه الحضارة ضمن حدود جزيرة العرب ..

« ... ويرى الخبراء المتخصصون فى شئون البلاد العربية أن الهجرة من جزيرة العرب تمت فى الاصل من منطقة جنوبى الجزيرة . ومنها توجهت الجماعات النازحة من جزيرة العرب الى الشمال ، ثم توزعوا على أطراف الهلال الخصيب فى فلسطين وسورية ومصر والعراق ..
« وفى هذه المرحلة من حضارة العرب استطاعت القبائل العربية النازحة من جزيرة العرب بفضل الحضارة

والخبرة اللتين اكتسبتهما فى وطنها الاصلى خلال فترة الازدهار من تأسيس الحضارات السامية العربية الكبرى فى مستوطناتها الجديدة .. فأسست هذه القبائل فى مدة قصيرة نسبيا لاتتجاوز ثلاثة آلاف سنة أقدم الامبراطوريات واعظمها مما عرفه تاريخ العالم القديم فى تاريخ البشرية أى الامبراطوريات الساميات الاربع : الاكدية ، والبابلية، والآشورية ، والكلدانية الآرامية ..

« ان الهجرات المتتالية التى انبعثت من جزيرة العرب كانت من أهم العوامل فى تقدم الكيان الحضارى فى الشرق الادنى والسير به نحو التطور فى مختلف الميادين الزراعية والتجارية ، والسياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والدينية . ذلك الكيان الذى انبعثت منه أقدم الامبراطوريات وأعظمها فيما عرفه التاريخ ..

« فالجزيرة العربية اذن هى بحق مهد الحضارات السامية العربية ، فقد قذفت بأبنائها الاشداء الى ماوراء الصحارى .. فهى والحالة هذه الينبوع الذى انبثقت منه جميع الحضارات العربية السامية فى الهلال الخصيب ..
« وكانت مستوطنات شعب الجزيرة فى عالمه الجديد تؤلف عالما عربيا واحدا يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الاجزاء تضم الجزيرة العربية « الام » وابناءها فى بلاد المهجر ..

« لقد كان هؤلاء العرب بناة أعظم واقدم امبراطورية

سامية عرفها التاريخ . وهى الامبراطورية الاكدية التى اسسها « سرجون » فى القرن الربع والعشرين قبل الميلاد والتى سميت بالاكدية نسبة الى عاصمتها « أكد » « وعندما استقرت الحضارة السامية فى العراق ازدهرت فيه سلسلة متواصلة من الممالك العظيمة لعبت دورا رئيسا وهاما فى تقدم الحضارة الانسانية . .

« ولقد بقيت الحضارة العربية فترة من الزمن بين المد والجزر كونت فى خلالها دولا عربية كدولة الغساسنة فى سورية ، والمناذرة فى العراق ، ودولة الأنباط والتدمريين وغيرها من الامارات العربية كامارة كندة ، وامارة الحضر وامارة الرها ، وامارة حمص وغيرها حتى ظهر الاسلام فانبعثت به الحضارة العربية على مستوى أوسع واعم ، وعادت فانبعثت من منبعها الاصلى (جزيرة العرب) وأسست دولة عظمى فاقت جميع الدول التى سبقتها بحيث شملت القارات الثلاث (آسيا وافريقيا واوربا) .. وقد حاولت أوربا المسيحية قهر الحضارة العربية الاسلامية وابادتها ولكنها فشلت بعد محاولة استمرت حوالى مائة وخمسين عاما » .

ويختم المؤلف بحثه هذا بكلمة « جورج سارتون » الذى يقول :
« سبق للعرب ان قادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من التقدم الانسانى طوال الفى سنة على الاقل قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى أربعة قرون تقريبا

وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد » .

* * *

اذن كان هناك ممالك عربية وحكومات عربية وحضارة عربية أيام كانت « أوربا » وما حولها مغارات وكهوفا ، وظلاما فى ظلام .

واذن ، فالبيئة التى نزل عليها الاسلام كانت ذات ماض عريق وتجربة عريقة وممارسة طويلة الامد مع الحكم والحكومات .

ونحن نعلم ان الاسلام جاء ليحدث تغييرا وتصعيدا . تغييرا للباطل ، وتصعيدا وتعلية لكل ما هو ضرورى وحق .

ولم يكن العرب فى عصور الجاهلية الموغلة فى البعد ، بقادرين على ما يعجز عنه أسلافهم فى ظل الاسلام بكل قوته وعظمته ورشده .

وحتى مكة — فيما بعد — والتى لم تكن فيها حكومة ، نجدها قد قامت بتوزيع مسئوليات الحكومة على قبائلها وبيوتاتها وأفذاذ رجالها فكانت قوى المجتمع هى التى تحكم وتقود فى تنظيم ناضج وسديد .

والمدينة كانت قبل ذهاب الاسلام اليها تتهيأ لتتويج ملك عليها واذا قام الملك قامت حوله الحكومة على نحو ما . .

وهكذا لم يكن الاسلام يعمل فى خواء ولا يبدأ من فراغ حين يدعو اتباعه لتأسيس حكومة ، بل وحين يبدأ بالفعل فى تأسيس دولة وقف على رأسها امام المتقين وخاتم المرسلين وخير خلق الله اجمعين .

- ٣ -

وعندما توجد « أمة » تؤلف بينها وحدة اللغة والجنس والدين .. وتوجد الارض أو « الوطن » الذى تقطنه هذه الامة . . . . ثم توجد « سلطة عليا » تنظم شئون هذه الجماعة ، فقد وجدت الدولة . .

ولقد توفر هذا كله للامة المسلمة بعد أن استقر مقام المسلمين فى المدينة . فقد كان هناك « أمة » هى أمة الاسلام . وكان هناك وطن وعاصمة لهذه الامة ، هى « المدينة » . . وكان هناك سلطة عليا تتمثل فى الرسول صلى الله عليه وسلم بما يوحى اليه من ربه وبما تتمخض عنه مشوراته الدائمة مع أصحابه حول كل القضايا والمواقف التى لم يأت الوحى فيها ببيان .

وهذه حقيقة لا تقبل المماراة .

يقول المستشرق « هاملتون جب » :

« بعد الهجرة قام فى المدينة مجتمع قائم بذاته منظم على قواعد سياسية تحت قيادة رئيس واحد .

« وقد كانت فكرة الرسول الثابتة عن هذا المجتمع الدينى الجديد الذى اقامه ، أنه سينظم تنظيما سياسيا . ولن يكون هيئة دينية منفصلة ومندرجة تحت حكومة زمنية » (١)

---

(١) نقلا عن كتاب :

النظريات السياسية فى الاسلام للدكتور ضياء الدين الريس .

ويقول المرحوم الدكتور محمد ضياء الدين الريس (٢) :

« لم يكن هناك أية وظيفة من الوظائف التى يمكن أن يقال عنها أنها سياسية ــ من اعداد الاداة لتنفيذ العــدالة ، أو تنظيم الدفاع ، أو بث للتعليم ، او جباية للمال ، أو عقد معاهدات ، أو انفاذ سفارات الا كانت هــذه الدولة تؤديها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فالمجتمع المسلم فى المدينة اذن كان له دولة يقودها رسول الله صــلى الله عليه وســلم .. دولة لها جيش ، وراية ، وقــوانين ، وضرائب ، وكل مقومات الدولة الحديثة . واتسع نطاق هذه الدولة ، وقام صرحها العظيم فى عهــد الخلفاء الراشــدين . ثم فيما تلاه من عصور وعهود .

ولعلنا لا نجد دينا ، ولا نظرية تتطلب طبيعتهما قيام الدولة كما نجد ذلك فى الاسلام .

فالاسلام دين نظام ، ليس فى نطاق المعاملات وحسب . بل وفى نطاق العبادات .. فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، كلهــا تؤدى وفق نظام حازم وحكيم .

وهو لا يعنى بتنظيم الحياة فى نطاقها الواسع فحسب ، بل وفى أضيق نطاق .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم معلما اصحابه وأمته :

« اذا كنتم ثلاثة فى سفر ، فأمروا احدكم » .

---

(٢) نفس المرجع السابق .

اى ، فليختر الثلاثة من بينهم واحداً يكون عليهم « اميرا » ينظم مسعاهم ومسراهم .

فكيف نتوقع من دين يعنى بالامارة بين ثلاثة الا يعنى بها بالنسبة لمجتمع كبير وامة عريضة . . ؟!

ولقد كان أصحاب الرسول رضوان الله عليهم على وعى كامل بهذه الحقيقة ولهذا وجدناهم يتجه اهتمامهم بعد موت الرسول مباشرة الى اختيار الخليفة ، حتى قبل تجهيز الرسول ودفنه !!

* * *

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك ان بناء « دولة الاسلام » واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول .

بل لعله كان يرى ذلك جزءا من مهام الانبياء والمرسلين أيضا . . فعليه تنزلت الآية الكريمة التى خاطب الله بها نبيه داود عليه السلام :

« يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

فالله سبحانه يخاطب « داود » نبيه بأنه خليفته فى الارض يسوس امور قومه ، وينشر العدل ، ويحكم بين الناس بالحق . . أفلا يكون « محمد » عليه السلام كذلك نبى دعوة ، وقائد دولة وامة ؟؟

والاسلام باعتباره « خاتم » الاديان ، و « صفوة » الشرائع ، لا يمكن أن يحقق ذاته الا بارساء قواعد الدولة التى تحقق اهداف هذا الدين الخاتم .

ومادام المجتمـــع البشرى بطبيعة تكوينه فى حاجة الى دولة او دول تنظم سلوكه وحياته ، فكيف يغفل الاسلام عن تلبية هذه الحاجة الملحة والضرورية .. ؟؟

بل ان الكتب التى ارسلها الرسول الكريم فى السنة السادسة للهجرة الى نفر من أباطرة العـــالم يومئذ وحكامه ، وعلى رأســـهم « هرقل » امبراطور الروم ، و « كسرى » فارس ، و « النجاشى » امبراطور الحبشة ، و « المقوقس » حاكم مصر وغيرهم .

نقول ان هـــذه الخطوة من جانب الرســـول كان لها مغزاها السياسى بعد مغزاها الدينى .

انها تدعوهم الى عبادة الله وتوحيده والدخول فى دينه الخاتم ، ولكن ، لعلها بعد هذا تشير الى ما كان الرسول عليه السلام يعلقه على الاسلام من أمل فى اقامة « حكومة عالمية » تقوم على منهج الدين وقيمه ومبادئه لا سيما بعد أن كشف الله له حجب الغيب يوم الخندق فرأى الاسلام يضىء بصرى والشام والعراق وفارس والروم .. !!

لقد كانت هذه الرؤية لا الرؤيا . التى وقعت يقظة لا مناما حين كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع أصحابه فى حفر الخندق فاعترضتهم صخرة عاتية ، فتعرض لها الرسول بمعوله وحين انصـــدع جبروتها وطار شررها كبر الرسول ربه وحمده بصوت جهير ، فقد رأى نورا يغمر جنبات الارض ، والقى فى روعه انه نور الاسلام سيضىء البلاد ويهدى العباد .

كانت هذه الواقعـــة فى غزوة الخنـــدق فى السنة الخامسة من

الهجرة وكانت كتـــابته للاباطرة والملوك بعد ذلك بقليل فى الســـنة السـادسة للهجرة . . أفلا نلمح علاقة بين الموقفين ؟

انه مادام الرسول كان رسول الله للعالمين ، وكان دينه شرعا للعالمين . فلماذا لا تكون النظم التى أرساها هذا النبى وهــذا الدين منهجا للعالمين سواء كانت نظما سياسية أم اجتماعية ؟

لماذا لا يطمح الاسلام الى « حكومة عالمية » تلتف حول مبادئه وكتابه . . ؟

لقد تحققت نبوءة الرسول التى تنبأ بها يوم الخندق . . وخلال خمسة وعشرين عاما دانت الجزيرة العربية كلها للاسلام ودخل تحت مظلة دولته الكبرى معظم بــلاد وتخوم الامبراطوريتين الفارســية والرومانية ثم توالى الفتــح بعد ذلك حتى صــارت القوة والزعامة الاسلامية طوال مائتى سنة هى القوة الاولى فى العالم كله .

اجل — بين عامى ٦٥٠ ، ٨٥٠ ميلادية كانت الدولة الاسلامية اقوى واعظم دولة فى العالم .

وفى أقل من ثمانين عاما شملت الفتوحات الاسلامية من الارض والبلاد أكثر من تلك التى ضمتها روما فى ثمانمائة عام . . ! !

ولم تكن فتوحات الاسلام غاشمة ولا ظالمة ، بل كانت رحمـــة وهداية وسلاما . . كانت حروب تحرير وتمــدين . وليس أدل على ذلك من أنه بعد تفكك الدولة الاســـلامية ظل المسلمون قادة الفــكر والعلم فى العالم لمدة خمسة قرون .

كما انها لم تكن فتوحات عنصرية ، فان الكثيرين من أبناء الدول المفتوحة كانوا يصلون الى أعلى مناصب الدولة . وعندما ترك المسلمون اسبانيا — مثلا — لم يتركوها مهلهلة منهوبة . بل تركوها امبراطورية عظمى بفضل ما كانوا قد اسدوا اليها من حضارة وعمران وثقافة ..

أوكل ذلك ، ثم نقول : الاسلام دين لا دولة .. ؟! اذن فماذا كان كل هذا الفتح العظيم والطود الشامخ ؟؟

— ٤ —

لقد كانت تصرفات الرسول تومىء الى رجل ينشر دعوة ويبنى دولة فهو يشكل الجيوش ويجعل عليها أمراءها ، وهو يعقد المعاهدات ، ويرسل السفارات ، ويجمع الضرائب — زكاة وجزية — وحين يغادر المدينة عاصمة الدين والدولة يختار اميرا يخلفه فيها ويقوم اداريا وسياسيا ودينيا بكل مهام الرسول عليه السلام . ولقد قام الرسول فى المدينة بكل مسئوليات النبى والحاكم ، واستمر ذلك من بعده بدءا من يوم السقيفة ..

من أجل هذا ، اجمع المسلمون — أهل السنة ، والمعتزلة ، والشيعة ، والمرجئة ، والخوارج الا قلة ضئيلة عرفت باسم « النجدات » اجمعوا جميعا على وجوب نصب « الامام » أى قيام « الدولة » التى ترعى شئون الاسلام والمسلمين .

والاسلام وان يكن دينا شرعه الله سبحانه الا أنه فى تطبيقاته الانسانية يمثل « عقدا اجتماعيا » يتضمن قيام سلطة تفى بالتزامات هذا العقد ، وتسهر على تنفيذه .

والمبادىء والتنظيمات التى تلبى كل احتياجات الناس ، والتى اثرآها « الفقه الاسلامى » وتفسح فى تبيانها تتطلب شرعا وعقــلا وبداهة قيام « سلطة » تؤمن بهذا التراث وتلتزم باحترامه وتنفيذه .

والاسلام يقيس نوع السلطة بنوع قيمه ومبادئه ، فهو لا يقبل اى سلطة تفرضها ظروف مجافية لمبادئه . بل لابد ان يتوفر لهــذه السلطة من العدل واحترام الشريعة ما يجعلها جديرة بكونها سلطة اسلامية .

من اجل هذا عرف الفقهاء المسلمون رئيس الدولة المسلمة بأنه « يقوم بأمر الحرب والسلم ، وتدبير الجيوش والسرايا وسد الثغور ، وحماية الامة ، والاخذ من ظالمها لمظلومها ، والقيــام بكل مصالحها ومهامها السياسية » .

ومن أجل هذا اجمع الفقهاء كما اسلفنا على وجوب قيام الدولة المســلمة .

يقول ابن خلدون :

« ان نصب الامــام واجب قد عرف وجــوبه فى الشرع باجماع الصحابة والتابعين» .

ويقول حجة الاسلام الغزالى :

« الدين والسلطان توأمان » .

ويقول النسفى فى عقائده :

« والمســلمون لابد لهم من امام يقوم بتنفيــذ احكامهم ، واقامة حدودهم ، وسد ثغورهم ، وتجهيز جيــوشهم ،

وجمع الزكاة المفروضة عليهم ، وقهر المتلصصة وقطاع الطريق ، واقامة الجمع والاعياد ، وقطع المنازعات القائمة بين العباد » .

ويقول الامام الغزالى ايضا مبينا حاجة الدين والدنيا الى الامام أى الدولة :

« ونظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل اليهما الا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والاقوات والامن ، ولعمرى من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

« فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الامن على هذه الضروريات ومن قضى جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبة ، فمتى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه الى سعادة الآخرة .

« ... ان الدنيا والامن على الانفس والاموال لا ينتظمان الا بسلطان مطاع . وهذا تشهد له أوقات الفتن .. فما لم يتدارك الامر بسلطان مطاع لدام الهرج وعم الشغب وشمل القحط ، وهلك الناس وبطلت الصناعات وصار كل من غلب سلب ، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم ان بقى حيا ، والاكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف . ولهذا قيل : الدين اساس والسلطان حارس . وما لا اساس له فهو مهدوم ، وما لا حارس له فضائع » [1] .

---

(١) كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد .

وقال الماوردى :

« .. ويجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامة ، ليكون الدين محروسا بسلطانه ، والسلطان جاريا على سنن الدين واحكامه » .

وقال الشهرستانى :

« ولابد للكافة من امام ينفذ أحكامهم ، ويقيم حدودهم ، ويحفظ بيضتهم ، ويحرس حوزتهم ، ويعبىء جيوشهم ، ويقسم غنائمهم ويتحاكمون اليه فى خصوماتهم ، وينصف المظلوم وينتصف من الظالم ، وينصب القضاة والولاة فى كل ناحية ، ويبعث القراء والدعاة الى كل طرف » . (١)

وقال الايجى صاحب المواقف :

« انا نعلم علما يقارب الضرورة أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والمناكحات والجهاد والحدود والمقاصات واظهار شعار الشرع فى الاعياد والجمعات — انما هو مصالح عائدة الى الخلق معاشا ومعادا . وذلك لا يتم الا بامام يكون من قبل الشرع يرجعون اليه فيما يعن لهم » (٢) .

ويقول الجرجانى :

« نصب الامام من أتم مصالح المسلمين ، واعظم مقاصد الدين » .

---

(١) نهاية الاقدام فى علم الكلام نقلا عن كتاب النظريات السياسية الاسلامية .

(٢) المرجع السابق .

ويقول ابن تيمية :

« يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيـــام للـــدين الا بها ، فان بنى آدم لا تتم مصلحتهم الا بالاجتماع بعضهم الى بعض ، ولابد لهم عند الاجتماع من الحاجة الى رأس . حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم « اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » .

« ولان الله اوجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولايتم ذلك الا بقوة وامارة . وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل ، واقامة الحج والجمع والاعياد ، ونصر المظلوم واقامة الحدود . . وكل ذلك لا يتم الا بالقـــوة والامارة .

« ولهذا روى « السلطان ظل الله فى الارض » . . وكان السلف الصالح كالفضيل بن عياض ، واحمد بن حنبل ، وغيرهما يقولون :

« لو كانت لنا دعـــــوة مســـتجابة لادخـــرناها للسلطان » . . (١)

— ٥ —

واجماع المسلمين هذا على ضرورة قيام الدولة المسلمة مستمد مما انتظمه القرآن والسنة من آيات وتوجيهات ، ومن نهج الخلفـــاء الراشدين الذين قال الرسول عنهم :

---

(١) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية .

« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهـديين من بعدى . عضوا عليها بالنواجذ » .

كما انه مستمد بعد ذلك من حركة الاسلام خلال التاريخ الطويل

اما عن القرآن ، فالقرآن مملوء بالآيات التى تدعو المسلمين انى حكم الله .

والفعل ـ حكم جاءت مشتقاته فى القرآن بمعنى «الحكومة» التى تقضى وتفصل وتقود .. وجاء بمعنى « الحكمة » .. وجاء بمعنى الاحكام والاتقان .. وجاء بمعنى الغلبة والاقتدار .. فلا يجوز الخلط بين هذه المعانى ، ولا يجوز مثلا حمل آيات الحكم على معانى الحكمة أو الاحكام ، أو الاقتدار ، لان معنى الحكم فيها واضح ومبين .

فمن آيات « الحكمة » قوله تعالى :

« ويعلمهم الكتاب والحكمة ـ وما أنزل عليكم من
« الكتاب والحكمة ـ آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة
« وانزل الله عليك الكتاب والحكمة ـ ادع الى
« سبيل ربك بالحكمة ـ ذلك مما أوحى اليك ربك
« من الحكمة ـ ولقد آتينا لقمان الحكمة ـ واذكرن مايتلى
« فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ـ وشددنا ملكه
« وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

ومن آيات « الاحكام » والغلبة قوله سبحانه :

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم

« الحكيم ــ فاعلموا ان الله عزيز حكيم ــ ولو شاء الله
« لأعنتكم أن الله عزيز حكيم ــ هو الذى يصـــوركم فى
« الأرحام كيف يشــاء لا اله الا هو العزيز الحكيم ــ ثم
« ادعهن يأتينك ســعيا واعلم أن الله عزيز حــكيم ــ
« وما النصر الا من عنــد الله العزيز الحــكيم ــ وهو
« القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ــ وكلمة الله هى
« العليا والله عزيز حكيم . . »

فى هذه الآيات الكريمة يتحدث القرآن عن الحكمة بمعناها . . وعن الاحكام بمعناه . . وعن الغلبة والاقتدار بمعنيهما .

أما لفظ الحكم بمعنى القضاء والفصل وبمعنى الحكومة أيضـــا فقد ذكره القرآن ستا وسبعين مرة (١) وحســبنا هنا ايراد بعض الآيات التى تشير بوضوح الى ان الاسلام له دولته التى تحكم بما أنزل الله والتى تجعل العدل شرعتها ومنهاجها .

يقول القرآن العظيم :

« انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ، **لتحكم** بين الناس بما أراك الله . . »

فالقرآن لم ينزل على قلب الرسول ليتعبد به المؤمنون فحسب

---

(١) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم لطيب الذكر المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى .

بل وليكون ـــ اولا ـــ منهجا للحكم يحكم به الرســـول امته المسلمة بما اراه الله اى بما رسم له فى هذا القـــرآن من سبيل وما قنن فيـــه من قانون .

ويؤكد القرآن هذا الدور لرسول الله قائلا :

« فاحكم بينهم بما انزل الله ـــ وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم » . . .

ثم يؤكد له ضرورة الالتزام بحكم الله فيقول :

« واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك » . .

وليس هذا الخطاب قاصرا على الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هو دعوة مفتوحة لكل مسلم يلى امر المسلمين .

يقول الله تعالى :

« ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلهـــا ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » . .

والامانات هنا لا تعنى تلك الودائع التى يســـتودعها بعضنا بعضا فحسب بل تعنى ـــ أولا ـــ مسئولية الحـــكم التى هى امانة ائتمن الله عليها الحاكمين .

واداؤها الى اهلها يعنى العدل فى تنفيذها والقيام بها ، كمـــا يعنى اشراك الشعب فى هذه المسئولية بكل الوســـائل التى تجعل مشاركته فى الحكم مشاركة فعالة وحقيقية .

والحكم بما انزل الله وبما شرع لعبـــاده ، وبناء الـــدولة التى تلتزم هذا النهج كان من بين وظائف الرسول عليه السلام .

ولمْ ينزل الله كتابه لنلهو به . بل هو ينقل الينا حكم الله الذى ارتضاه للناس ، ولا يرضى بغيره بديلا عنه .

يقول سبحانه :

« والله يحكم لا معقب لحكمه » . .

ليس هنـــاك من يفرض رأيه على حـــكم الله مهما تكن عبقريته وقوته .

ويؤكد العلى الكبير هذا المعنى فى هذه الآيات الكريمة :

« ذلكم حكم الله يحكم بينكم ـــ ان الحكم الا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين ـــ الا له الحكم ـــ ان الحكم الا لله ، أمر الا تعبدوا الا اياه ـــ ان الحكم الا لله عليـــه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » .

ويرفض القرآن ويدحض كُل افتيات على حكم الله وكل عدول عنه الى حكم وضعى مريج . فيقول :

« ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون ـــ ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون ـــ ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون » . .

ويوبخ القرآن أولئك الذين ينحرفون عن حكم الله الىحكم البشر

« افحكم الجاهلية يبغون ؟ ! ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ ! » .

ويضع حدا فاصلا بين المؤمنين المخبتين الذين أذعنوا لحكم الله

وارتضوا تشريعه وقانونه ، وبين الضالين الذين عموا وصموا عما انزل الله من كتاب ..

فيقول عن الاولين :

« انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا واطعنا » .

ويقول عن الآخرين :

« واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون » .

ويعلم الرسول أن يقول لاولئك المعارضين والمعترضين :

« افغير الله ابتغى حكما ، وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا » .

اجل .. كيف يبتغى المؤمنون حكما غير حكم الله وهو الذى انزل اليهم كتابا مفصلا ومحكما وتبيانا لكل شيء ، وارسل اليهم خاتم انبيائه ورسله يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدعوه ويدعوهم بقوله :

« وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله » .

ان هذه الآيات التى سلفت ، يكشف القرآن بها عن أن للاسلام دورا غير هداية الناس ، هو دور الحكم والحاكم الذى يحمى ذمارهم ، وينظم حياتهم عن طريق دولته التى يجب أن تقوم وان تبقى ما بقى فى الدنيا اسلام .

ودستور هذه الدولة ماثل فى كتاب الله ، وسنة الرسول ، واجماع الامة ..

واجماع الامة يتشكل وفق ما في القرآن والسنة من احكام .

« يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر منكم . فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ... »

والقرآن فى الدولة المسلمة هو أبو القوانين فيها . وسنتحدث عن هذا الموضوع ان شاء الله عند حديثنا عن شكل الدولة المسلمة وكيف تنهض وتقوم .

أما الآن وقد تلونا الآيات القرآنية التي تعلمنا أنه لابد للاسلام من امام يحكم ودولة تقوم ، فلنتجه صوب السنة النبوية لنطالع رأيها فى هذه القضية .

- ٦ -

ونحن حين نطالع آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الخاصة بقيام الدولة فى الاسلام ، لا نلتقى بآية ولا بحديث يقول : يا ايها الذين آمنوا اقيموا دولة أو اتخذوا منكم اماما وحاكما ، تماما كما لا نلتقى بآية تقول أو بحديث يقول : يا أيها الذين آمنوا تنشقوا الهواء ..!! ذلك أن القضية من البداهة بحيث لا تتطلب أمرا بها ودعوة اليها انما يتجه القرآن وتتجه الاحاديث النبوية مباشرة الى الحديث عن شكل هذه الدولة ومقاييسها وأخلاقياتها وعن المسئوليات المتبادلة بينها وبين الامة.

ان قيام دولة فى أى أمة أمر بدهى تتطلبه طبائع الاشياء وتقتضيه سنن الاجتماع البشرى .

وهذا ما أدركه الامام على بفطرته وذكائه حين قال :

« لابد للناس من امارة ـــ برة كانت أو فاجرة . .

« قيل : يا أمير المؤمنين ، هذه البرة قد عرفناها ، فما بال الفاجرة . . ؟؟

« قال : يقام بها الحـــدود . . وتؤمن بها الســـبل . . ويجاهد بها العدو . . ويقسم بها الفيء . . »

فقيام الدولة أيا كان لونها أمر ضرورى بقدر ما هو بديهى .

وانما كان اهتمام القرآن والسنة بالنهج الذى تقوم عليه الدولة فى الاسلام ـــ أى بمميزات وخصـــائص وسمات الدولة المسلمة . فاذا قال القرآن للرسول « احكم بينهم » فانه يتبعها بقوله « بما أنزل الله » . . واذا قال له « لتحكم بين الناس » أتبعها بقوله : « بما أراك الله »

ومعنى هذا أن الاسلام ينشد نوعا معينا من الدول والحكومات . هو الذى يلتزم بتعاليمه ومبادئه وتقاليده .

وتعالج أحاديث الرسول الاكرم الموضوع بشمول ووضـــوح . ولنبدأ بهذا الحديث العجيب .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من مات وليس له امام ، مات ميتة جاهلية » .

والمراد بالامام فى الاسلام اذا أطلق ، « الحاكم » أى « الدولة » فأى توكيد لدورها ، بل أى تقديس أكثر من هذا الذى نرى ؟!

لا يحق لاى انسان رشيد أن يعيش فى الفلاة كالحمر الوحشية

ليس له مجتمع يؤويه ولا دولة تحميه . . ومهما يبالغ المسلم فى الفرار بدينه من الفتن ، فلابد أن يكون له انتماء يربطه بأمته ودولته . والا عاش آبقا ، ومات ـــ كما قال الرسول ـــ ميتة جاهلية .

أن الدين الذى يقول رسوله هذا الحديث لا يمكن أن يتجـــاهل قيام الدولة . بل لابد أن تكون الدولة أصلا من أصوله الراسخات .

ثم لنطالع هذا الحديث للرسول عليه السلام :

« كانت بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء عليهم الســـلام . كلما هلك نبى خلفه نبى . . وانه لا نبى بعدى . وسيكون بعدى خلفاء فيكثرون . .

« قال أصحاب الرسول : فما تأمرنا ؟؟

« قال : أوفوا بيعة الاول . . . »

فهنا يحفظ الرسول الدولة المسلمة من الانشقاق والتصدع ، ويبين أنها ثمرة « البيعة » و « الشورى » بدليل قوله عليه الســـلام « أوفوا بيعة الاول » .

ولكأنما كان الرسول يقرأ ويطالع مستقبل الدولة المســـلمة ، وما ستتعرض له من فتن واختناقات . بل لقد طالع هذا المستقبل فعلا حين قال :

« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك » .

يقول الصحابى راوى الحديث « لقد حسبنا خلافة ابى بكر ، وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، وخلافة على فوجدناها ثلاثين سنة » .

ويأمر الرسول باحترام بيعة الامة للخليفة الذى تختاره بكامل مشيئتها ويدعو الى رفض من نازعه الأمر بغير حق وسلطان ويحكم بتجريمه بل بقتله .. يقول عليه السلام :

« من أتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم ، فاقتلوه » !!

ومرة أخرى نلفت النظر الى قوله عليه السلام « وامركم جميع » اى أن الامام القائم ثمرة اجماع من الامة على تنصيبه واختياره .
وتقوم الدولة بكل مسئولياتها تجاه الأمة .

يقول عليه السلام :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالامام راع ومسئول عن رعيته ... »

والحاكم المسلم يكرس حياته لخدمة الامة واصلاح حالها وامرها وهو لهذا لا يغيب قط عن قضاياها ومشكلاتها .. بل لا يغيب عن حاجة اى فرد من أفرادها .

يقول عليه السلام :

« من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين ، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله تعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » ..

والحاكم عادل ومقسط .

« ان المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ـــ الذين يعدلون فى حكمهم واهليهم وماولوا »

والدولة المسلمة لا تخدع الامة ولا تغشها ولا تعاملها بظاهر جميل يخفى باطنا قبيحا .

يقول عليه السلام :

« ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة » .

والحاكم المسلم وجميع ولاته على الاقاليم مسئولون أمام الله ثم أمام الناس عن سلوكهم ، وعن مدى التزامهم بتعاليم الاسلام الحنيف

والحاكم مسئول عن ولاته الذين يجب أن يختارهم وفق راى الاسلام فيهم ، لا وفق هواه .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مؤكدا معنى الحديث :

« من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين » .

يقول الامام ابن تيمية (١)

« ويجب على كل من ولى شيئا من أمر المسلمين أن يستعمل فيما تحت يده فى كل موضع اصلح من يقدر

---

(١) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية .

عليه . ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية ، بل يكون ذلك سبب المنع .

« فان عدل عن الاحق الاصلح الى غيره ، لاجل قرابة بينهما أو صداقة أو موافقة فى بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية ، أو لرشوة يأخذها منه ، أو غير ذلك من الاسباب ، أو لضغن فى قلبه على الاحق والاصلح ، أو عداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما نهى الله عنه بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون .

« .. ان الوالى الذى يؤدى الامانة مع مخالفة هواه يثبته الله ويحفظه فى أهله وماله بعده .. والمطيع هواه يعاقبه الله بنقيض قصده ، فيذل أهله ويذهب ماله .

« .. قال بعض الناس لامير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين أفغرت (افقرت) أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شىء لهم ، وكان فى مرض موته . فقال : ادخلوهم على ، فأدخلوهم فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال : يا بنى ، والله ما منعتكم حقا هو لكم وما كنت لآخذ أموال الامة فأدفعها اليكم .. وانما أنتم أحد رجلين « اما صالح ، فالله يتولى الصالحين .. واما غير صالح فلا أخلف لكم ما تستعينون به على معصية الله ..

ثم يقول ابن تيمية رضي الله عنه :

« فبارك الله له فى ولده واغناهم حتى ان أحدهم تبرع فى

احدى الغزوات مع الروم بمائة فرس للمجاهدين .

« حدث هذا من عمر بن عبد العزيز وهو خليفة المسلمين من اقصى المشرق ببلاد الترك الى أقصى المغرب بالاندلس .. ومن جزيرة قبرص وثغور الشام الى اقصى اليمن .. ولقد كان نصيب كل من أبنائه من تركته وميراثه أقل من عشرين درهما .

بينما كان هناك احد الخلفاء ، اقتسم بنوه تركته فكان نصيب كل فرد منهم ستمائة الف دينار .. ومع ذلك فقد كان بعض هؤلاء الابناء يتكففون الناس بعد ما أصابهم من فقر وفاقة » ...

أجل — الحاكم وولاته مسئولون عن الامة ثبات وجميعا ..

والامانة والتعفف هما مقياس صلاحية الحاكم والولاة . والذين تصلهم بأموال الناس وظيفة ومنصب فان مسئوليتهم عن الامانة تفوق كل تقدير ..

ان الذى يرى الرسول وهويواجه خيانة من مال الشعب أوسفها فى انفاقه ليرى أمرا عجبا .

فهذا الرسول الرحيم العظيم الذى طالما التمس المعذرة ورجا رحمة الله للخطائين يقف أمام الخيانة او التجوز فى مال الامة وكأنه لا حيلة له ابدا . ولاول مرة نراه يستحى أن يسأل ربه المغفرة لآثم . ذلك لان الآثم هذه المرة خائن ، خان مال الامة وهو عند الله اثم مبين .

اهدى رفاعة بن زيد للرسول عليه السلام خادما .. وفى غزوة

وادى القرى أصابه سهم وهو ينزل رحل الرسول ، فأقبل الصحابة على الرسول يعزونه ، ويقولون : هنيئا له يا رسول الله فقد مضى شهيدا فأجابهم الرسول قائلا :

« وما يدريكم ..؟ ان الشملة التى أخذها من المغانم يوم خيبر ، لتشتعل عليه نارا » ... !!

شملة .. شمله تساوى درهما أو بضعة دراهم يطارد اثمهـا آخذها حتى وان مات شهيدا .

الا انه لولاء للامانة ليس له نظير .. !!

ان كل قرش يناله وال أو موظف أو حاكم خلسة أو جهرة دون أن يكون له فيه حق لهو غلول وخيانة .

يقول الرسول عليه السلام :

« من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقا ، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » .

ان العلاقة بين الوالى والامانة تبلغ فى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغا عظيما من التقديس .. فهو — مثلا — يرفض رفضا مطلقا أن يقبل الوالى أو الموظف هدية — مهما تكن — جزاء عمل اداه يدخل فى نطاق واجبات ولايته ووظيفته . ان هذا يفتح بابا خلفيا للخيانة والتفريط فى الحقوق العامة .

وقف عليه السلام خطيبا ذات يوم وقال :

« أما بعد ، فانى أستعمل الرجل منكم على عمل مما ولانى الله .

« فيأتى ويقول : هذا لكم ، وهذا أهدى الى . .
هلا جلس فى بيت أبيه حتى تأتيه هديته ان كان صادقا .؟
« والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقـــه الا لقى الله يحمله يوم القيامة . . اللهم قد بلغت » . . . !!

ان الرسول ليتحدث عن « أمانة الحكم » باهتمام عظيم ، ويلقى تعاليمه الهادية المضيئة الى الحكام ، والولاة ، والقضاة ، والى كل من يحمل مسئولية فى الدولة .

يقول عليه السلام عن الامارة :

« انها أمانة ، وانها يوم القيـــامة خزى وندامة ، الا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » .

ولان الحكم « أمانة » ومسئولية عظمى لا يتهالك عليها الا جاهل بفداحتها ، ولقد كان الرسول عليه السلام يرفض أن يولى أحدا ولاية أو امارة يسألها ويرنو اليها .

ذهب أحد أصحابه يوما يسأله أن يوليه احدى الولايات ، فقال:

« انا والله لا نولى هذا الامر أحدا يسأله أو أحدا يحرص عليـــه » . . !!

ويوصى عبد الرحمن بن سمرة قائلا :

« يا عبد الرحمن ، لا تسأل الامارة ، فانك ان ســـألتها وكلت اليها . . وان أعطيتها بغير مسئلةأعنت عليها » (١)

---

(١) راجع كتابنا ـــ كما تحدث الرسول .

قد يكون رفض الحكم أمرا ميسورا للرجل الورع ، لكن الصعب بالنسبة اليه هو تقلد الحكم ، وتحمل مسئولياته الشداد .

ومن المريح لك أن تضع عن كاهلك الحمل الثقيل الذى يؤود الاشداء من الرجال ، ولكن الصعب جدا أن تحمله وتمضى به السنوات الطوال ..

لذلك لا نجد المتهافتين على السلطة الا من بين النهمين لشهوات الدنيا من منصب ومال وجاه والفارغين عقولا وأفئدة .

ولعل خير تعبير عن هذه الحقيقة يتمثل فى قول الامام على كرم الله وجهه :

« أما والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا ما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ، وسغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها ، وسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز » ..!!

وكان يوما يخصف نعله ومعه ابن عمه عبد الله بن العباس ، فسأله الامام على :

ــ ما قيمة هذه النعل ؟؟

قال ابن عباس : لا قيمة لها ..

قال الامام : والله لهى أحب الى من امرتكم ، الا أن أقيم حقا ، أو أدفع باطلا .. !!

* * *

واختيار الدولة لولاتها يجب ان يتم وفق مقاييس الاســـلام . المتمثلة فى أن يكون الوالى كفؤا وعدلا وصادقا وأمينا . . ولاة ينصحون الدولة ولا يغشونها ، يواجهون الحاكم ولا يتملقونه . يخلصون للحق ويجعلون ولاءهم له من دون الناس .

يقول الرسول عليه السلام :

« اذا أراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صـــدق : ان نسى ذكره . . وان ذكر أعانه . .

« واذا أراد به غير ذلك ، جعل له وزير سوء : ان نسى لم يذكره . . وان ذكر لم يعنه » .

اذن فاختيار الولاة الاكفاء من صالح الحاكم قبل أن يكون من صالح الامة ، والحاكم الذكى ، والوالى الذكى أيضا هو الذى لا يبيع دينه بدينا غيره . .

ان الدولة تقف بكل مؤسساتها على الهوة الفـــاغرة والمنزلق الوعر اذا هى أسندت أمورها لغير الاكفاء والامناء . . واذا هى آثرت المنافقين والجبناء .

واذا كان اختيار الولاة الصالحين واجب الحاكم ، فان اختيار الحاكم الصالح واجب الامة .

وهذا ينقلنا الى الحديث عن شكل الدولة المسلمة وكيف تتشكل وتقوم .

* * *

اذا القينــا نظرة على العــالم حوالينا الفينا الدولة فى كل بلد انعكاسا للمبادىء والنظريات السياسية التى يمارسها ذاك البلد .. وتتحكم الاوضاع الاقتصادية الى حد كبير فى تشكيل نوعية الدولة ، ورسم خصائصها .

والدولة المســلمة لا تخرج عن هذه القــاعدة . فهى انعكاس لمبادىء الاسلام وقواعده وخصائصه .

واول ما يواجهنا ونحن نتحرى هذه الخصائص والمبادىء ، مبدأ الشورى ..

فالاسلام دين الشورى بكل ما تحمله الكلمة من معنى وشمول . وبالتالى فان شكل الدولة القائمة باسمه المســتظلة برايته لابد أن يكون « شوريا » وقد تنزل القرآن على الرسول يأمره امرا واضحا وواجبا أن يدبر أمور أمته عن طريق الشورى فيما لم يأت القرآن فيه بحكم صريح .

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه :

« فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضــوا من حولك . فاعف عنهم ، واســتغفر لهم ، وشاورهم فى الامر .. فاذا عزمت فتوكل على الله » .

ويلفت الامام الرازى أنظارنا الى معنى رائع تعطيه هذه الآية الكريمة . ذلك أنها نزلت فى أعقاب « غزوة أحد » تلك الغزوة التى لم يكن النبى يرى فيها الخروج من المدينـــة لملاقاة قريش خارجها . بيد

أن الاغلبية من اصحابه رأوا غير ما راى ، فنزل النبى على رأيهم . وخرج على رأس جيشه لملاقاة جيش الشرك ودارت الحرب عند جبل أحد . وحدث فيها ما حدث للمسلمين من محن شداد .

فى اعقاب هذا الذى حدث نزلت الآية الكريمة تقول للنبى عليه السلام :

« وشاورهم فى الامر » .

اى لا تجعل ما ظهر من خطأ رأيهم سببا لتجنبك الشورى ، فان الخطأ مع الشورى أسلم من الصواب مع التفرد بالرأى . . !!

وهذا الموقف بين الله ورسوله لا غرابة فيه ولا عجب ، مادام الرسول انما بعث ليعلم الناس ويهديهم سواء السبيل .. ان سواء السبيل هنا وفى هذا المجال هى الشورى التى لا تعرف الملل ولا الاستعلاء .

اجل .. نزل الوحى عليه بعد ما حدث له ولعمه حمزة ولاصحابه بسبب الشورى ما حدث . نزل ليأمره بالمزيد من الشورى . . . !!

ولقد حذق الرسول الكريم الدرس الذى لقنه الوحى اياه ، فعاش يقدس الشورى فى كل امر ، ويرسخ ذلك فى روع أصحابه .

فيقول لهم :

« ما تشاور قوم قط الا هدوا لأرشد أمرهم » .

ويصفه صاحبه أبو هريرة رضى الله عنه فيقول :

« لم يكن أحد أكثر مشـــورة لاصحابه من رســـول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولقد مضى ســـلوك الرسول على هـــذا النهج من الاهتمـــام بالشورى واخضاع كل قراراته لها حتى فى أشـــد المواقف وأكثرها حرجا وتجهما . . .

ولنضرب لهذا مثلا آخر :

فى غزوة « الخنـــدق » وهى تكاد تكون اخطر الغـــزوات التى واجهها الرسول والمسلمون . اذ اقبلت قريش ومن تبعها من أعراب كنانة وتهامة فى عشرة آلاف مقاتل شديدى المراس ومعهم يهود بنى النضير . ومن الداخل كان هناك يهود بنى قريظة نقضوا عهدهم مع رسول الله وانضموا الى الغزاة .

ويكفى فى تصوير هذا الموقف الرهيب أن نستمع لكلمة القرآن فيـــه :

« اذ جاءوكم — أى الاعداء — من فوقكم ، ومن اسفل منكم
« واذ زاغت الابصـــار ، وبلغت القلوب الحنـــاجر ،
« وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » . . !!

فى هذا الموقف الصـــاعق رأى النبى ان يقلل من عـــدد مهاجميه وذلك بأن يصرف « غطفان » عن هذه الحرب وعن حلفها مع قريش . وفكر عليه السلام ان يرسل الى قائدى غطفان ، ويعرض عليهما ثلث ثمار المدينة وغلتها على أن ينسحبا من الجيش المهاجم ويرجعا بقومهما

وفى هذا الهول لم ينس الشورى ، فعرض الامر على سـادة الاوس والخزرج فى المدينـة فأبوا هذا الصـلح واعتبروه اذلالا لهم وهوانا فنزل عليه السـلام عند رايهم مسلما امره الى الله ومترقبـا بركة الشـورى .. ولقد كانت مباركة حقا ، فقد هزم اليـأس جيش قريش وحلفائها ، وسخر الله ريحا وعواصف اقتلعت خيامهم وأطفأت نارهم وكفأت قدورهم واذهلتهم عن أنفسهم فصاح فيهم «أبو سفيان» صيحة الفرار والخذلان واليأس وانقلبوا الى مكة صاغرين .

* * *

وكان عليه السلام يقول لابى بكر وعمر :

« لو ذهبتما لرأى ما خالفتكما » .

ليس احتراما للشـورى وحسب . بل ولأن الشيخين اصبحا بصوتيهما يشكلان اغلبية تجاه الصوت الواحد ، وان يكن صـوت الرسول ... !!

ولقد جعل الله سبحانه احترام الشـورى من اثمن خصـال المؤمنين وصفاتهم . قال تعالى :

« وما عنـد الله خير وابقى للذين آمنـوا ، وعلى ربهم يتوكلون .. والذين يجتنبون كبـائر الاثم والفواحش ، واذا ما غضبوا هم يغفرون .. والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة ، **وامرهم شورى بينهم** ، ومما رزقناهم ينفقون » ..

ولقد اخذ الخلفاء الراشدون بواجب الشورى فى حزم ويقين .

ويحدثنا « ابن القيم » نقلا عن التابعى الكبير «ميمون بن مهران» انه قال :

« كان أبو بكر الصديق اذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى ، فان وجد فيه ما يقضى به قضى به .. وان لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فان وجد ما يقضى به قضى به . فان أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم ان رسول الله قضى فيه بقضاء . فربما قام اليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا ، وكذا .. فان لم يجد سنة سنها رسول الله جمع رؤساء الناس فاستشارهم . فاذا اجتمع رأيهم على شىء قضى به « وكان ــ عمر ــ يفعل ذلك ... » (١)

فحكومة ابى بكر وعمر لم تكن كما يتصور البعض حكومة « مستبد عادل » .. ولقد عرضت لدحض هذا الرأى فى مقدمة كتابى « وجاء أبو بكر » ، وقلت : ان الذين يرون فى أبى بكر وعمر مستبدين عادلين انما يجانبون الصواب .

اولا ، لانهما لم يكونا مستبدين ساعة من نهار .

وثانيا ، لانه ليس هناك شىء اسمه « المستبد العادل » .

فالاستبداد والعدل ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يلتقيان . وان

---

(١) أعلام الموقعين جـ ١ .

احدهما ليختفى فور ظهور الآخر ، لان ابسط مظاهر العدل ان ياخذ كل ذى حق حقه . . واذا كان من حق الناس — وهذا مقرر بداهة — أن يختاروا حياتهم وحكامهم ، ويقرروا مصايرهم ، فان ذلك يقتضى فى نفس اللحظة ولنفس السبب اختفاء الاستبداد .

ولقد كان « ابو بكر ، وعمر » رضى الله عنهما على بصيرة من هذا . وعلى الرغم من أنهما والامة معهما كانا خاضعين خضوعا مطلقا لما انزل الله من كتاب فقد أتاحا للمسلمين كل فرص المناقشة والمعارضة والاختيار .

ربما يذهب الظن بالبعض الى أن « أبا بكر ، وعمر » لم يكونا حاكمين ديمقراطيين لأنه لم يكن بجوارهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة من برلمان ودستور ومعارضة وصحافة حرة .

بيد ان وضع المسألة على هذا النحو يشكل خطأ كبيرا . . وانما يستقيم الفهم اذا نحن أجبنا عن هذا السؤال :

— هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية التى عرفها العالم حديثا ، هل كان غيابها عن الدولة المسلمة يومذاك راجعا الى كفران الخليفتين بهذه المؤسسات ؟!

والجواب بيقين : لا — وغياب هذه المؤسسات لا يعنى أكثر من كونه تعبيرا عن نظم ذلك العصر البعيد فى جزيرة العرب بل وفى معظم بلاد العالم منذ الف واربعمائة عام .

لقد حقق الخليفتان على اوسع مدى الجوهر الحى للديمقراطية

من خلال ايمانهما العميق بكرامة الانسـان ، ومن خلال الاشكال والتطبيقات التى كانت تلائم عصرهما .

● فاذا كانت الدولة المسلمة فى عهديهما لم تشهد قيام معارضة برلمانية منظمة نفقدان ذلك فى بيئتهما وعصرهما ، فان المعارضة نفسها كانت تمارس بأسلوب فعال وعميم .

● واذا كانت الدولة يومئذ لم تشهد قيام برلمان يراقب الحاكم ويشرع القوانين ، فان الشورى يومئذ كانت شعيرة من شعائر الله ، وكانت حقا مقدسا للجماعة كلها .

● واذا كان التطور يومئذ لم يهيىء قيام صحافة حرة ، فان الكلمة الصادقة الشجاعة كانت على كل لسان . يصغى الخليفة اليها، ويثيب عليها .. !!

ولو ان الخليفتين العظيمين « ابا بكر ، وعمر » يحكمان فى عصرنا هذا لأعطيا التجربة الانسانية فى النظام الديمقراطى الرشيد كل احترامهما ، ولانتفعا بها الى ابعد مدى ، ولاخذا من أشكالها الحديثة ما يحقق جوهرها ويعبر عن خصائصها .

صحيح أن ذلك لم يكن سيتم بصورة مطلقة . بل كان سيتم داخل ايمانهما المطلق بالدين الذى آمنوا به واتبعوه .. على أنه مع وجود هذا التحفظ لن ينقص ذلك من قدرهما كحاكمين ديمقراطيين .

ذلك ان اى حاكم ديمقراطى انما يعمل داخل حدود الدستور العادل القائم فى دولته .

وابو بكر وعمر كانا يعملان داخل حدود الدستور القائم فى دولتهما ..

لقد كان للقرآن فى امتهم من الولاء والاجلال والهيمنة أكثر مما للدساتير فى كل دول الدنيا .

ولقد تضمن القرآن العظيم مزيتين من أعظم مزايا الديمقراطية:

أولاهما — انه جعل الشورى واجبا مفروضا فى دولة الاسلام .

وثانيتهما — أنه لم يلزم بطاعة أحكامه واعتناق مبادئه الا من يقره ويختاره ويؤمن به .. اى بلغة عصرنا الحديث : « من يقترع عليه بالموافقة » !!

أما الآخرون الذين لم يؤمنوا به من أهل الكتاب — يهود ونصارى — فلهم أن يعيشوا وفق عقائدهم ، ويختاروا أسلوب حياتهم .

صحيح أن القرآن « دستور » لم يضعه الشعب ، ولكنه دستور رضيه الشعب ، وآمن به واقترع عليه ، واستشهد فى سبيله

فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وساروا معه آمنوا بأن القرآن وحى من عند الله وعليهم طاعته ، ولم يكرههم احد على الايمان به .

ولقد حمل « الصديق ابو بكر » بعد الرسول مسئولية قيادة الامة وفق هذا الايمان .

ثم حمل « الفاروق عمر » المسئولية بعد أبى بكر وفق هذا الايمان ايضا .

واذن فالمعيار الصحيح الذى يوزن به حكمهما وديمقراطيتهما هو مدى احترامها لهذا القرآن .. لهذا الدستور ، الذى آمن به المسلمون واختاروه قانونا ومنهجا لحياتهم .

* * *

ولقد تحدث الفقهاء طويلا عن كون الشورى ملزمة أم غير ملزمة اى هل ينتهى دور الشورى عند ابلاغ الخليفة أو الحاكم بها ثم له بعد ذلك ان يأخذها وأن يرفضها .. وبهذا تكون غير ملزمة .. لا أم انها ملزمة وواجب على الحاكم الاخذ بها .

وعندى انها ملزمة ، ثم ملزمة ، ثم ملزمة .. ولو لم تكن كذلك لما كان من ورائها جدوى ولا فائدة ..

لانه اذا كان المراد من الشورى تقليب وجهات النظر وصولا الى الصواب ، فان فى الوحى غناء عن هذه المحاولة . ولن يعقل أن يتخلف الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقف خطير كموقف الحرب فى غزوة أحد وغيرها .

واذا كان الغرض من الشورى مجرد ترضية شكلية للمسلمين فان فى ذلك احباطا وتثبيطا ، بل واهانة للشورى وللمستشارين يجل عنها مقام الرسول .

اذن يتعين أن يكون المراد من الشورى تمكين الامة من حقها فى أن يكون لها رأى محسوب فى تقرير مصايرها ، ويكون هذا الموقف بين الرسول والمسلمين مقصودا لتدريب الامة على يد رسولها وقائدها .. تدريبها على ممارسة حق الشورى الذى هو من أهم وأجل حقوقها .

ثم ان مواقف الرسول وخلفائه من الشــورى تدحض الرأى القائل بعدم الالزام . .

ان الرسول الذى كان معه الوحى يصبحه ويمسيه ، أمره الله وأوجب عليه أن يشاور أصحابه . . ورأينا كيف خضــع للشورى فى أشد المواقف هولا وضراوة .

* * *

ولكن ماذا تعنى « الشــورى » بلغــة عصرنا الحــديث الذى نعايشه ولا نستطيع منه فكاكا . وقديما قيل ، ولعله حديث نبوى .

« الناس بزمانهم ، أشبه منهم بآبائهم » .

ما الشكل الذى يجب على الدولة المسلمة أن تكونه وفقا لمبدأ الشورى ، ومتابعة لروح العصر . . ؟؟

هل يكفى اليوم أن يكتفى الحاكم بمشاورة أهل الحل والعقد ، والشعب هناك قابع فى مسكنة وضياع كالمقعد الضرير . . ؟!

ومن هم أهل الحل والعقد . . ؟!

ان هذا السؤال يرفض كل تجاهل له ، ويدحض كل جبن عن مواجهته .

وعندى أن المفهوم الحديث للشورى التى زكاها الاسلام هى : الديمقراطية البرلمانية . .

أن ينتخب الشــعب نوابا عنه يمثلون ارادته ومشــيئته ، ويختارون أو يختار الشعب كله معهم الحــاكم الذى يرأس الدولة ويقودها ـــ ويكون هؤلاء النواب حراسا على حقوق الامة لدى الدولة

يؤيدون الحاكم اذا صلح ، ويقاومونه او يعزلونه اذا زاغ وانحرف .

وهؤلاء النواب عندى هم « أهل الحل والعقد » لا سيما اذا طعم المجلس النيـــابى فى أمة ما ببعض الكفايات المتخصصـــة ولو بالتعيين المحدود .

وهـــذه الديمقراطية تفتح ذراعيها للمعارضـــة داخل المجلس وخارجه عن طريق البرلمان والصحافة وكل وســـائل الاعلام ، فان الديمقراطية بلا معارضة تعنى الديمقراطية بلا ديمقراطية ... !!

وقديما قلت :

« ان افضل علاج لاخطـــاء الديمقراطية ، هو المزيد من الديمقراطية » ...

هذه حقيقة نود للمستمسكين بالدولة الاســـلامية ان يعـــوها جيدا .. فلا يقولان احدهم : نظام دولتى الشورى ثم يمضى !! لابد من ترجمة هذه الكلمة الى منهج سياسى مفصل ..

ولقد افضى بى البحث الى أن الشورى هى اليوم «الديمقراطية البرلمانية » ولا تزيد ..

ولن يكون ثمة حـــرج ولا بأس ان نحن أضـــفنا الى تراثنـــا السياسى بعض النظم السياسية المعـــاصرة ، فان مجرد استخدام الاسلام لها وتدثيرها بجوهر مبادئه سيجعلها اسلامية ، كما أصبحت بعض الكلمات الاجنبية فى القرآن عربية بمجرد استخدام القرآن لها.

ان الحكم فى الاسلام ليس حكما مطلقا ، ولا تســـلطا وقهرا . ولكنه حكم شورى . حكم ديمقراطى بأصدق معانى هذا التعبير .

وهو فى نفس الوقت عقد بين الله والحاكمين أن ينشروا الايمان ويقيموا العدل ، ويكونوا امناء على مصالح الناس ومصايرهم .

* * *

وبالتفسير الذى أسلفناه للشورى ندرك فى وضوح أن الحاكم ليس ملاكا يتنزل على الناس من السماء .. انما هو بشر ، ومواطن يختاره الشعب بكامل حريته ومحض ارادته ليحفظه ويقوده وفق الدستور والقانون .

ورئيس الدولة فى الاسلام ، ليس من يشغل منصبه بالتعيين ولا بالوراثة ، ولا بالعهد الذى لا تقره الامة وترضاه .

ذلك أن الامامة لا تنعقد لاحد الا بالاختيار والاتفاق .

قال علماء الفقه « الامامة عقد » فالبيعة شرط أساسى لقيام رئيس الدولة .. اذ العقد يكون دائما بين طرفين ، والطرف الاول لعقد الامامة هو الامة (١) .

يقول البغدادى فى كتابه « اصول الدين » :

« قال الجمهور الاعظم من اهل السنة ومن المعتزلة ومن الخوارج ان طريق ثبوت الامامة هو الاختيار من الامة » .

ولهذا نجد أن الامام عندما يريد ترك الامامة فليس ثمة من يملك حق اعفائه سوى الامة ، وهذا يدل على انها هى التى تملك حق توليته — هذه نظرية الاسلام .

---

(١) النظريات السياسية الاسلامية .

فالامامة او الخلافة هى حق الامة ، والامة فى الاسـلام هى مصدر السلطات .. وهى بمجموعها او عن طريق نوابها المنتخبين منها التى تختار رئيس الدولة الذى لن يكون اكثر من وكيـل للامة يصرف أمورها وشئونها .

وقد يبدأ اختيار الامام من اهل عاصمة البلاد التى سيحكمها ، ولكن ذلك لا يكفى ، بل يتبعه بيعة الامة كلها بنفسها أو بنوابها .

يقول الماوردى (١) :

« وليس لمن كان فى بلد الامام على غيره من اهل البـلاد فضل مزية .. وانما صار من يحضر ببلد الامام متوليـا لعقد الامامة عرفا لا شرعا لسبق علمهم بموته ، ولأن من يصلحون للخلافة فى الاغلب موجودون فى بلده » .

ويقول ايضـا :

« ان عقد الامامة عقد مراضاة واختيار ، لا يداخله اكراه ولا اجبار » .

وهناك تعريف رائع للامام قاله الامام « أحمد بن حنبل » عندما سئل عن معنى قول الرسول عليه السلام : من مات وليس له امام مات ميتة جاهلية ـ فقال أحمد :

« أتدرى من الامام ؟؟

« الامام هو الذى يجمع عليه المسلمون . كلهم يقـول : هـذا امام » ..

---

(١) الاحكام السلطانية .

ولابد لتوضيح هذا الامر من الرجوع الى عهد الخلفاء الراشدين لتوضح بعض ما عساه أن يبهم علينا .

فالخليفة الاول « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه تم اختياره لا تعيينه . اذ لم يعهد الرسول لاحد بالخلافة من بعده — وفى هـذا اشارة واضحة الى أنه عليه السلام احتفظ للامة بحقها فى الاختيار .

تمت الخلافة لابى بكر بالبيعة من بعض المسلمين يوم السقيفة ومن بقيتهم فى اليوم الثانى ، ثم توالت البيعة من الأنحاء .. صحيح أن « عمر بن الخطاب » هو الذى بدأ بالبيعة وصمم عليها . ولكن ذلك لا يعنى أنها كانت بيعة فرد بل كانت بيعة أمة . بيعة المهاجرين والانصار الذين كانوا قد بايعوا الرسول من قبل وآزروه ونصروه .

يقول ابن تيمية فى كتابه « منهاج السنة » .

« لو أن عمر وطائفة معه بايعوا أبا بكر ، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يصر أبو بكر اماما بذلك — وانما صار اماما بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة » ..

وكذلك يقول الامام الغزالى : (١)

«لولم يبايع أبا بكر غير عمر، وبقى كافة المسلمين مخالفين أو انقسموا انقساما متكافئا لا يتميز فيه غالب عن مغلوب لما انعقدت الامامة » .

---

(١) الرد على الباطنية — نقلا عن النظريات السياسية الاسلامية .

وأمير المؤمنين « عمر » نفسه يدرك ذلك ويحض الامة على ان تحتفظ بحقها فى الاختيار .. وفى الخطبة الشهيرة التى القاها عقب عودته من موسم الحج قال :

« .. فمن بايع رجلا عن غير مشـــورة المســـلمين ، فانه لا بيعة له هو ولا الذى بايعه » .

* * *

فأن عهد الامام القائم بالأمر لآخر من بعده ــ كما فعل ابو بـــكر مع عمر ــ فلابد من توافر شروط الامامة فيمن يعهد وفيمن يعهد اليه من أمانة ونزاهة وكفاءة وورع واخلاص .. ثم لابد من توثيق هـــذا العهد برضاء الامة أو الاغلبية منها واقراره .

اما توريث ابن أو قريب غير صـــالح للامامة ، وليس معه من شروطها وصفاتها شيء ، الا ما يصله بالموصى من قرابة أو صهر ، فهذا مناف لروح الاسلام ووجهته .

يقول ابن خلدون (٢) :

« واما أن يكون المراد بالعهد حفظ التراث على الابنـــاء فليس من المقاصـــد الدينية ، وينبغى تجنبه خـــوفا من العبث بالمناصب الدينية » .

وعلينا أن ندرك جيدا ان اختيار ابى بكر لعمر لا يعنى فقـــدان العامل الديمقراطى فى اختيار الخليفة .

---

(٢) المقـــدمة

فابو بكر اختار عمر لا بصفته الشخصية ، بل بوصفه خليفة نبوا منصبه هذا باقتراع الامة عليه واختيارها اياه ، فكأنه نقل بيعة الامة منه الى من اختاره .. ثم انه اختار أصلح المسلمين لهذا المنصب فى تلك الظروف .. ثم انه قبل اختياره استشار جمهرة الصحابة وقادتهم .

يقول الطبرى فى تاريخه (١) :

« ان ابا بكر لم يكتب عهده لعمر الا بعد أن استشار كبار الصحابة وهم قادة الرأى وموضع ثقة الامة فأثنوا كلهم على عمر . وقال عثمان بن عفان : [اللهم ان علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وان ليس فينا مثله]

« ولما اتم استشاراته أشرف على الناس فقال لهم : [اترضون بمن أستخلف عليكم .. ؟] فانى ما الوت من جهد الرأى ، ولا وليت ذا قرابة ، فقالوا سمعنا واطعنا »

ثم ، وهذا هو الاهم فان جميع المسلمين فى شتى الانحاء وافقوا يومئذ على تنصيب عمر خليفة ولم يقم أحد بالاعتراض مع قدرتهم على ذلك لو أرادوا بدليل ما حدث فى أواخر عهد عثمان .. وكذلك لم تكن بيعة « عثمان » من الستة الذين اختارهم « عمر » لترشيح الخليفة واختياره . بل كان .. وهنا نترك الحديث لابن تيمية الذى يقول :(٢)

« ان عثمان لم يصر اماما باختيار بعضهم ، بل بمبايعة الناس له . وجميع المسلمين بايعوا «عثمان بن عفان» ولم

---

(١) الجزء الاول : (٢) منهاج السنة .

يتخلف عن بيعته أحد . . قال الامام أحمد : ما كان فى القوم من بيعـــة عثمان كانت بأجماعهم . والا لو قدر أن عبـــد الرحمن بن عوف بايعه ثم لم يبايعـــه على ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصر اماما .

« ثم ان ابن عوف حلف أنه أقام ثلاثا لم يغتمض فيها بنوم يشاور السابقين الاولين والتابعين لهم بأحسان ، ويشاور أمراء الانصار فأشـــار عليه المسلمون بولاية عثمـــان . وقدموا عثمان وبايعوه ، لا عن رغبة أعطاهم اياها ، ولا عن رهبة أخافهم بها » .

وأيا ما يكن الامر ، فان روح الاسلام وروح ما أسلفنا من وقائع ثم روح العصر الذى نعيش فيه تحتمان قيام البيعـــة لرئيس الدولـــة بالشورى والاقتراع الحر الذى تيسرت أسبابه فأصبح من المستطاع معرفة راى الامة فيمن تختاره لرئاستها وتقترع عليه فى يومين أو ثلاثة مهما يبلغ تعدادها وتتسع رقعتها .

وعلى اختيار الشعب لحاكمه يتوقف مستقبله القريب والبعيد

ومن الظواهر الصادقة أنه كلما كانت الامة عالية فى مستواها الحضارى ، كان اختيارها لحكامها صائبا وسديدا .

والاسلام يعلمنا أن سوء اختيار الحاكم ايذان بضياع الامة . .

يقول عليه السلام :

« اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظر الساعة » .

اى اذا ولى الحكم فى امة من الامم من ليس اهلا له ، فانتظر ساعة هذه الأمة تدق معلنة ضياعها وهلاكها . . . !!

والحاكم المسلم يحقق أمرين لابد منهما — القدوة الصالحة ، والعدالة الشاملة .

انه يرث رسول الله فى منصبه كقائد دولة ، لهذا كان حتما عليه أن يسير على نهج الرسول ما استطاع الى ذلك سبيلا .

ويصف الامام على الحاكم المسلم فى شىء من التفصيل فيقول :

« لا ينبغى أن يكون الوالى على الاعراض والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين بخيلا ، فتكون أموالهم نهمته . . ولا جاهلا ، فيقتلهم بجهله . . ولا جافيا ، فيقطعهم بجفائه . . ولا خائفا من الدول ، فيتخذ قوما دون قوم . . ولا مرتشيا فى الحكم ، فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع . . ولا معطلا للسنة ، فيهلك الامة » . . .

وللدولة المسلمة طاعة ابنائها مادامت متحققة بالدين الذى أقامها ودعا الناس لطاعتها .

يقول عليه السلام :

« اسمعوا وأطيعوا ، وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله » .

ويقول عليه السلام :

« على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا ان يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

اجل ما أقام فيكم كتاب الله . . أى ما احترم الدستور الذى تحيا عليه وتدين به الدولة المسلمة .

فاذا فسق الحاكم وبغى وظلم فلا سمع له ولا طاعة . بل ولا بيعة . وعلى الامة أن تنبذه وتخلعه .

ذلك ان الدولة كلها وسلطاتها الثلاث جميعا — التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية — كل هؤلاء أمناء على حكم الله وعلى مشيئة الشعب .

وأى نوع من الحكم يعطل كتاب الاله الذى هو دستور الدولة المسلمة ويتحدى ارادة الامة ، ويودى بسيادة القانون فلا حرمة له ولا ذمة ولا بقاء .

ولا تنتهى مهمة الامة باختيار الحاكم ، بل تبدأ بهذا الاختيار . وتذهب معه كل مذهب ، وتراقبه وتعاونه على البر والتقوى، وتزجره عن الخيانة والانحراف .

وهذا يتأتى بوجود رأى عام قوى وذكى .

والراى العام فى الدولة المسلمة ضرورة مفروضة ، لانه صمام الامان ، والعين الثاقبة ، والكلمة الطيبة .

والراى العام ، هو ما أسماه القرآن والاسلام [الامر بالمعروف والنهى عن المنكر] .

اجل — هذا هو ما نسميه اليوم بلغة العصر « الراى العام » . ذلك أن وظيفة الراى العام هى متابعة احداث المجتمع ومراقبة جميع

سلطاته ، وتسليط الضــوء على الاخطـــاء السياسية والاخلاقية ، والاجتماعية ، ومقاومة كل تحد للدستور والقانون ، وتبصير الآخرين من فئات الشعب بواجبهم تلقاء المواقف والاحداث .

وهذه تماما هى وظيفة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر . ودور الرأى العام فى الدولة المسلمة دور ترشيد وبناء .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يرضى لكم ثلاثة :

« أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا » .

« وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

« وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » .

ويقول عليه السلام :

« الدين النصيحة .. قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ولرسوله ، ولائمة المسلمين وعامتهم » ..

ويقول أيضــا :

« ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم :

- اخلاص العمل لله
- ومناصحة ولاة الامر
- ولزوم جماعة المسلمين » .

فالنصح للحاكم اول وظائف وواجبات الرأى العام .. وكلما كان الرأى العـــام مهذبا جاءت نصائحه مهذبة . فالنصح شىء آخــر غير التشهير به والحقد عليه .

واذا توجه الرأى العام بنصحه فلوى الحاكم جيده وثنى عطفه، فان ذلك لا ينبغى أن يفت فى عضـــد الناصحين بل عليهم أن يتشبثوا بكلمتهم ويرددوها كالنشيد ، ويذيعوها بين الناس حتى يتكون حولها رأى عام يصبح قادرا على ابلاغها واخضاع الحاكم لها .

وكل حاكم يضيق بالرأى العام ويحاول خنقه فهو فى نظر الاسلام معطل لشريعة من شرائع الله وفريضـــة من فرائضـــه .. تلك هى فريضة « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

لقد كرم الله هذه الامة المحمدية لانها تحيى شعيرة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال تعالى :

« كنتم خير امة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

وأهان ولعن قوما آخرين لانهم تخلوا عن فريضة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال سبحانه :

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لســـان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقال عن أحبارهم الذين صمتوا عن كلمة الحق :

« لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » .

ووقف خليفة رسول الله ابو بكر يوما خطيبا فقال :

« سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان

الناس اذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر. أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » .

الى هذا المدى يزود الاسلام دولته ومجتمعه برأى عام فعال وبار ونشيط . .

وكما قلنا ، فان محاولة الدولة احباط هذا الرأى العام ووأده يعرضها لمقت الله وسخرية الناس ويحق عليها المقاومة وضرورة التغيير .

ان الاسلام يدرك أن الحياة الانسانية مكتظة بالخطايا والاخطاء ويدرك أن الله لم يعط انسانا الحقيقة وحده مهما أوتى من بسطة فى العلم والذكاء .

ويدرك أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة . . من أجل هذا راح يحاصرها ــ ان صح هذا التعبير ــ برأى عام يقظ ومخلص ورشيد . ينهنه من كبرياء السلطة ويطامن من غرورها . فاذا تنكر الحاكم لهذا الرأى العام واحتال على اسكاته بالكذب والخديعة ، أو بطش به غير مبق عليه ولا مكترث به فقد حرم نفسه قبل أن يحرم الامة من النور الذى يضىء له الطريق .

والدولة كما نعلم ، تقف على رأس التنظيمات السياسية للامة

ولكى ينهض من حولها راى عام يساندها اذا صلحت ، ويقومها اذا انحرفت ، فلابد لهذا الراى ان يكون متمرسا بكل مشاكل الامة وقضـــاياها وعلى وعى عميق بهـــا . . ولابد أن يكون له من الفـــكر السياسى نصيب موفور . اذ كيف يكون له رأى فى القضايا السياسية دون أن يكون له علم بها ؟!

ومن هنا نرى ان الاسلام عبادة وسياسة .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

فالمسلم الذى يقضى نهاره صائما ، وليله قائما ، ثم ينفض يديه من مشكلات أمته ، ويتخلى عن واجبه المحتوم فى الاهتمام بأمر الامة المسلمة لا يكون منها ولا يحسب عليها .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لان أمشى فى حاجة اخ لى حتى تقضى احب الى من أن أعتكف فى مسجدى هذا شهرا » . . !!

هذا فى حاجة فرد . . فكيف بحاجات أمة ، ومشكلات مجتمع ، وسياسة دولة . . ؟ !!

— ٨ —

والدولة الاســـلامية دولة دستورية لها دســـتور ينظم حياتها السياسية ، ويكفل حقـــوق الأمة عليها وحقوقها على الأمة . ولهـــا قوانين سائدة ومتطورة فى حدود علاقاتها بالدستور .

ودستور الاسلام هو القرآن ، والسنة ، والاجماع .

القرآن أولا .. ثم تأتى السنة والاجماع ومعهما الاجتهاد ليفصلوا من القرآن ما أجمل ، ويوضحوا ما أحكم . ويأتى الفقه الاسلامى فيضع القوانين المستنبطة من كتاب الله ، وسنة رسوله . واجماع أمته ويثرى الاسلام اثراء هائلا وعظيما .

والقرآن دستور الدولة المسلمة يمتاز عن كل دساتير الدنيا ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها بأنه ليس من صنع البشر ، بل تنزيل من حكيم حميد .

وهو بهذه المثابة فوق كل محاولة للتمرد عليه أو التغيير فيه . ثم هو بهذه المثابة ايضا أكثر دساتير البشر تمكينا للاستقرار والرسوخ مع قابلية فذة وذكية لكل مسايرة لروح العصر وتطور الأنظمة ، وان الانسان ليقع فى حيرة شديدة كلما رأى حكومات اسلامية ومجتمعات اسلامية تتخذ القرآن مهجورا ..!!

ان دستور الدولة الاسلامية هذا فوق كل عصيان أو مخالفة .. هذا هو مكانه الذى بوأه الله اياه .. حتى الرسول الذى أنزل عليه لا يملك مخالفته أو تغييره .

ونحن نعلم ان وجود حكومة ما يعنى أن هناك قانونا يطاع ويسود . فوجود حكومة اسلامية يعنى أول ما يعنى اجلال دستورها والخضوع لقوانينها .

ولقد جاء الاسلام بدستوره الالهى « القرآن » ثم وسع الفقه الاسلامى كما ذكرنا من قبل دائرة التقنين والتشريع بحيث فصل وقنن كل علاقة الفرد بنفسه، وبأسرته، وبجيرانه، وبمجتمعه، وبحكومته ، وبعالمه الفسيح كله .. وقبل هؤلاء جميعا وطد علاقة الانسان بربه .

واذا كان تحكيم الدستور وطاعته واجب الأمة ، فهو أولا وقبلا واجب الحاكم .

فالحاكم المسلم الذى لا يحكم الدستور القرآنى ، يصعب جدا الاعتراف له بأنه حاكم مسلم .

لقد ربط القرآن طاعة اولى الامر بطاعة الله ورسوله فقال :

« اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » .

ولعله لحكمة ما ، لم يقل : واطيعوا اولى الامر منكم اذ اعتبر طاعتهم امتدادا لطاعة الله ورسوله مادام حكمهم امتدادا لشريعة الله ومبادىء رسوله .

من اجل هذا كانت أول كلمات استقبل « أبو بكر الصديق » بها المسلمين اثر مبايعته :

« أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

ومعنى هذا ان الحاكم المسلم الذى يعصى الله فى حكمه ، ويجحد قرآن ربه ، يوقع فى نفس الوقت وثيقة عزله . .

ومن اجل هذا رأينا « الفاروق عمر » يستهل اللحظات الباكرة من خلافته بسؤال وجهه الى حشود المبايعين :

« ما تقولون اذا ملت براسى هكذا ؟؟ » .

فيجيبه أحد الصحابة وقد انتضى سيفه وشق به الهواء :

« اذن نقول بالسيف هكذا » !!

فيتهلل وجه « عمر » ويقول :

« الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقـوم اعوجاج عمر بسيفه » ..!!

ارأيتم .. ؟؟

ان الرجل الذى يتحدث بهذه الكلمات هو الذى سيورثه الله عما قريب ملك كسرى وقيصر .

الرجل الذى كان أصحابه يرقبون ابتسـامته ترقب الاهلة من طول كظمه شفتيه خوفا من الله وتوقيرا له ، وغرقا من مسـئولياته أن يزل فيها او ينوء بها .

والرجل الذى خلق ليقـود عالما ، والذى رزق طبيعة تقتلهـا الراحة ويغريها العمل بالعمل (١) .

هذا هو الرجل الذى يتهلل وجهه ويتلألأ الحبور على جبينـه عندما يرى سيفا يلوح به صاحبه وهو يقول لامير المؤمنين :

« اذن نقول بالسيف هكذا » !!!

* * *

ولماذا نعرض عن القرآن ؟؟

لماذا نتهيب الحكم به والتسليم له ؟؟

---

(١) راجع كتابنا « بين يدى عمر » طبعة دار المعارف .

انستطيع ان نحكم انفسنا بخير منه ؟؟ ايستطيع عباقرة التشريع ان يتفوقوا عليه ، ويأتونا بأفضل منه ؟؟

هذا الذى نقل الينا كلمات الله عنه فقال :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » .
« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .
« وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه » .
« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور »
« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » .
« أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » .

انه دستور لا يزاحم ولا ينافس ولا يضاهى به سواه وليس أمام الدولة المسلمة اى خيار فى أن تأخذ بعضه وتذر بعضه . وان فعلت صمها تأنيب الله وهو يقول :

« أفتؤمنـــون ببعض الـــكتاب وتـــكفرون ببعض . . ! ؟
« فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحيـــاة الدنيا
« ويوم القيامة يردون الى أشـــد العـــذاب ، وما الله »
« بغافل عما تعملون » . . !!

كل ما تحتاجه الحياة ويحتاجه الناس من توجيهات ونظم وقوانين وآداب موجود فى اسلامنا . . موجود فى قرآننا العظيم . . وليس ثمة ما يدعو الى هجر القرآن ، ولا الى هجر الاسلام اللذين ارتضـــاهما الله لنا كتابا ودينا .

— ٩ —

ولكن ما منهج الدولة المسلمة فى العلاقات الدولية .. ؟

وهل هى دولة حرب ام دولة سلام .. ؟

اما منهجها فى العلاقات الدولية فتوضحه آية من آيات دستورها « القرآن » تلك التى تقول :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم . ان الله يحب المقسطين

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، واخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فالدولة المسلمة مأمورة من ربها ، ومدعوة من دستورها الى أن تقيم تعايشا سلميا بينها وبين كل دولة لا تقدم اليها الأذى ولا تحوطها بالمؤامرات .

ووفق الآية السالفة ، فان كل من لم يقاتلنا فى ديننا ، ولم يخرجنا — نحن المسلمين — من ارضنا ، ولم يظاهر غيره على اخراجنا فله مودتنا الخالصة وتعاوننا الوثيق .

وبالعكس ، فان كل من يقاتلنا فى ديننا ويخرجنا من أرضنا ، أو يظاهر الذين يخرجوننا ، فليس له الى مودتنا ولا الى صداقتنا سبيل .

هذا هو موقف الدولة المسلمة من العالم الذى حولها توضحه الآية الكريمة فى ايجاز مبين .

والهيئات الدولية التى تقوم والمواثيق الدولية التى تنشأ تأخذ الدولة المسلمة مكانها بينها وتحمل تبعاتها منها ، فلا تهدم بنيانا ولا تحنث بعهد وميثاق ، ذلك أن دستورها يأمرها :

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » .

« واوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا » .

ولقد أنشأ الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدات كثيرة تميزت بنشدانها السلام وتوكيدها على المشاركة العادلة فى خدمة المتعاقدين ولم يحدث ابدا أن نكث الرسول بعهد أعطاه أو موثق أمضاه .

ويصلنا الحديث بالسؤال الذى طرحناه آنفا :

هل الاسلام دين حرب أم دين سلام ؟

وعندى أن الجواب الصحيح هو أن الاسلام دين عدل . . فعندما تكون الحرب عدلا وتحقيقا للعدل فهو دين حرب . وعندما يكون السلام هو العدل فهو دين سلام .

لا يجبن عن نصرة الحق ، ولا يهرب من تبعات السلام . . والمهم هو سلوك الآخرين . ماذا يريدون للاسلام . الحرب أم المسالمة . . ؟؟

لقد قال الله لنبيه ، وهو فى نفس الوقت أمر للدولة المسلمة :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها . وتوكل على الله . انه هو السميع العليم » .

وامره وامر الدولة حيث تكون بأن تقف موقف الحذر من الذين :

« ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا اليكم أيديهم والسنتهم بالسوء . وودوا لو تكفرون » .

ونحن اذ نتتبع آيات القتال فى القرآن — دستور الدولة المسلمة — نجد أن أول آية نزلت آمرة بالقتال والجهاد كانت هذه الآية :

« أذن للذين يقاتلون — بفتح التاء — بأنهم ظلموا . وأن الله على نصرهم لقدير » .

« الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » .

وكم هو رائع هذا التعبير « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا — بضم الظاء — .

ان اول آية نزلت فى القرآن تبيح القتال وتأذن للمسلمين بمجاهدة عدوهم ، تمنحنا الفهم بأن المسلمين كانوا ممنوعين من حمل السيف ضد عدوهم لعله يرتدع ويتذكر ويخشى ويثوب الى رشده بما يلقونه به من حلم ومصابرة . فلما فشا بغيه واشتدت على المسلمين وطأته ، أذن للذين يقاتلون بأنهم اى لانهم ظلموا . .

فهنا قوم مظلومون مضطهدون ، ورغم قدرتهم على القتال فهم مدفوعون عنه وممنوعون منه حتى جاءهم الاذن من الله الذى هو على نصرهم قدير .

وهذه الآية تبين طبيعة الحرب فى الاسلام ووظيفتها . فهى حرب دفاع ، لا حرب غزو واستعمار وقهر وتسلط .

وكذلك الآيات التى انزلت خلال تطور المجابهة العسكرية بين الاسلام والشرك . بين المسلمين واعدائهم تلتزم نفس الغاية : الدفاع عن النفس .. والدفاع عن حق الانسان فى اختيار عقيدته وايمانه ونوع حياته ، وحقه فى دعوة الآخرين من بنى البشر الى ما يرى فيه صلاح أمرهم .

فالآيات تقول :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

وتقول :

« فان قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم » .

وتقول :

« ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

كل هذه الآيات نزلت تدعو المسلمين الى الدفاع عن أنفسهم ، والى قتال من يقاتلهم ، فلما احتشد أهل مكة مع قبائل العرب واليهود مصممين على الخلاص بالحرب من الاسلام ورسوله نزلت الآية الكريمة :

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

ونزلت الآية الكريمة :

« وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين » .

لقد نبأ الله المسلمين بنوايا المشركين واليهود تجاههم فقال :

« ولا يزالون يقاتلونــكم حتى يردوكم عن دينـــكم ان استطاعوا » . .

« ومن يرتدد منــكم عن دينه فيمت وهو كافــر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

أمام هذا الجموح العنيد من أعداء الاســلام . وأمام اصرارهم على افناء المسلمين لا يخجل الاسلام من أن يكون دين حرب وقتال . بل عندئذ يعد الجهاد فى سبيل الله فريضة على المسلمين ويدعوهم أن يهبوا حاملين الراية منتضين السيوف طامحين الى احدى الحسنيين النصر ، أو الشهادة . .

وهو ــ أعنى الاسلام ــ لا يترك عندئذ فرصة لجعل المسلمين مقاتلين مستبسلين الا اغتنمها ودق طبول الحرب عندها .

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيــل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

« الذين آمنوا ، وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم اعظم درجة عند الله . وأولئك هم الفائزون »

« يا ايها النبى حرض المؤمنين على القتال » .

« .. واقتلـــوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث اخرجوكم » .

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحيـــاة الدنيـــا بالآخرة » .

« ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .

« فأمـــا تثقفنهم فى الحـــرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » .

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله » .

« ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

« فاذا لقيتم الـــذين كفروا فضرب الرقـــاب . حتى اذا

اثخنتموهم فشدوا الوثاق . فأما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » . .

اجل — لا يسوء الاسلام ولا ينتقص من قــدره أن يكون دين حرب وقتال اذا جوبه بعداوة حاقدة وهجوم مسلح من اعدائه وأعداء ذويه .

لن يدع الاسلام اهله يقفون مكتوفى الايدى وهم يذبحون ، ولن يأمرهم أن يديروا خدهم الايسر لمن يلطم خــدهم الايمن ، لان هــذه مثالية لم ترق اليها بعد طبيعة الانسان .

بل من قاتلك نقاتله . . ومن قتلك فاقتله .

« ولكم فى القصاص حياة » .

« قاتلوهم ، يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » .

* * *

اننا حين نتتبع غزوات الرسول لا نجده قد خرج فى واحدة منها بادئا بقتال . .

- كانت غزوة « بدر » دفعــا للمشركين الذين جاءوا يقتحمون على المسلمين حياتهم الجديدة فى المدينة . .
- وغزوة « أحد » كانت دفعا للهجوم الكاسح الذى شنه المشركون الذين جاءوا فى ثلاثة آلاف مقاتل ، بينما خرج الرسول بألف رجع

ثلثهم من منتصف الطريق بتحـــريض زعيم المنـــافقين عبد الله بن ابى بن سلول .

- ويجيء قوم الى الرسول يرجونه ان يرسل معهم وفدا من اصحابه يعلمون قومهم القرآن والاسلام . وفى الطريق غدروا بهم وقتلوهم فكانت غزوة « بنى لحيان » .

- لقد قتل المجرمون نفرا من خيار اصحاب الرســـول . ولما علموا بخروج الرسول اليهم هربوا وتمنعوا فى رءوس الجبال وعلى الرغم من أنه لم يدر قتال ، فقـــد تعلم خصوم الاســـلام أن دم المسلم ـــ أى مسلم ـــ غال وعزيز .

- ويحاول اليهود من بنى النضير اغتيال الرسول عليه الســـلام ، فيخرج اليهم ويحـــاصرهم . . حتى اذا توســـلوا اليه ان يتركهم يغادروا المدينة الى خيبر سمح لهم بذلك مع علمه تماما أنهم فى « خيبر » سيحرضون عليه قريشا والقبائل .

- وقد حدث هذا فعلا ، فقد ذهب يهود بنى النضير هؤلاء يحرضون على الرسول قريشا وسائر العرب ، ويحزبون ضـــده الاحزاب حتى فوجيء المسلمون ذات يوم بعشرة آلاف مقاتل يهـــاجمون المدينة ـــ وكانت هذه غزوة « الخنـــدق » التى رد الله المشركين واليهود بغيظهم مدحورين .

- وفى غزوة الخندق هذه قام جمـــاعة اخرى من اليهود ، هم يهـــود بنى قريظة بخيـــانة بشعة مولين ظهـــورهم لما كان بينهم وبين الرسول من عهد .وكادت خيانتهم هذه تودى بالاسلام وبالمسلمين فكان لابد من تأديبهم . وهكذا كانت غزوة « بنى قريظة » .

- ولا يكاد الرسول والمسلمون يستريحون حتى تأتيهم الانباء بأن بنى المصطلق قد خرجوا لحربهم تحت قيادة الحرث بن أبى ضرار ، فكان لابد من ملاقاتهم وهكذا كانت غزوة « بنى المصطلق » التى هزم فيها الجيش المعتدى هزيمة ساحقة .

- ولا يكف اليهود عن التآمر ضد الرسول والاسلام ، ولا يقفون عن الدس والارجاف . وغرتهم مصابرة الرسول لهم . بل ومحافظته على كل حقوقهم واحترام شعائرهم فحشدوا جموعهم للاغارة على المدينة . وتزعم هذه المحاولة يهود خيبر ، فاضطر الرسول للخروج اليهم واسكات صوتهم الى الابد . .

- وتوجس الروم من الاسـلام خيفة ، وصـاروا يرون فيه خطراً يهددهم لا سيما فى بلاد الشام التى يستعمرونها والتى تتاخم بلاد هذا الدين الجديد . وهكذا راحوا يتخذون من الشام مركز شغب ووثوب وتجرأ حلفاؤهم الغساسنة على قتل الرسول الذى بعثه النبى اليهم بكتاب يدعوهم فيه الى الاسـلام ، وازداد تحرش الروم وتنمرهم وراحوا يحشدون جيشهم على الحدود فلم يكن بد من أن يخرج المسلمون اليهم وكانت هذه غزوة « مؤتة » .

- وينقض أهل مكة معاهدة الحديبية المبرمة بين الرسول وبينهم رغم ما أعطاهم الرسول فيها من تنازلات كادت تعصف بايمان بعض المسلمين . ومع هذا ففى السـنة الثامنة للهجرة نقضت قريش عهدها ، واغارت على حلفاء الرسول الذين استنصروا به فلم يكن بد من نصرتهم وهكذا كان فتح مكة العظيم . . !!

- ولا يكاد الرسول يتهيأ للراحة قليلا حتى يذاجأ بعد خمسة عشر

يوما من فتح مكة بقدوم هوازن وثقيف فى جيش لجب يريدون قتال الرسول والمسلمين ، فكان لابد أن يخرج للقائهم ، وهكذا كانت غزوة «حنين» ثم حصار الطائف .

● ثم لا يمر الا زمن وجيز حتى يفاجأ الرسول بحشود هائلة من الروم تتجمع على حدود فلسطين لقتال المسلمين ، فكان لابد أن يخرج الرسول اليهم على راس جيش عظيم — وهكذا كانت غزوة « تبوك » التى هى آخر غزواته عليه الصلاة والسلام والتى انتهت دون قتال .

فأين فى ذلك كله روح العدوان ؟؟ اين حب المغامرة الشريرة والقتال الباغى .. ؟!

الا ان الاسلام دين القتال ما كان القتال عدلا .. ودين السلام ما كان السلام عدلا .

والدولة المسلمة مأمورة بالتزام هذا النهج دون افراط ودون تفريط .

— ١٠ —

ودولة الاسلام حصن حصين للاقليات التى تعيش معها وبين مواطنيها ، لا سيما حين تكون هذه الأقليات أهل كتاب أو أهل ذمة كما يسميهم الاسلام .

ان الدولة الاسلامية مأمورة من الله ومن رسوله برعاية حرماتهم وحفظ حقوقهم ، وتركهم احرارا فى العيش وفق معتقداتهم

يقول عليه الصلاة والسلام :
« من قتل معاهدا ، حرم الله عليه الجنة » .

ويقول عليه السلام :
« من ظلم معاهدا ، أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو اخذ منه شيئا بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » .

وعن العرباض بن سارية السلمي رضى الله عنه يقول :
« تزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين . وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا ، فأقبل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أيحل لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا . . ؟
« فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن عوف . اركب فرسك ثم ناد : ان الجنة لا تحل الا لمؤمن وان اجتمعوا للصلاة ، فاجتمعوا ثم صلى بهم عليه السلام ثم قام فقال : ايحسب أحدكم متكئا على أريكته يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا الا ما فى القرآن . . ؟!
« الا وانى والله قد وعظت وامرت ونهيت عن اشياء انها لمثل القرآن .
« وان الله تعالى لم يحل لكم ان تدخلوا بيوت اهل الكتاب الا باذن ولم يحل لكم ضرب نسائهم ، ولا اكل ثمارهم اذا اعطوا الذى عليهم » !!

فالاسلام يحفظ حقوق المواطنين جميعا مسلمين كانوا ، أم يهودا او نصارى واذا كان يفرض على اليهود والنصارى « الجزية » ، فكما يفرض على المسلمين « الزكاة » كلتاهما ضريبة تؤدى لبيت المال . بل ان المسلم يدفع الزكاة ويحارب ويتحمل كل مشـــاق القتال أما الذمى يهوديا كان أو نصرانيا فانه لا يحارب ولا يخرج لقتال . . !!

وحين نطالع على سبيل المثال بعض المعـــاهدات التى حررها رسول الله عليه السلام وخلفاؤه من بعده لاهل الكتاب نرى عجبا . .

فلليهود يقول الرسول فى عهده لهم ومعهم :

« ان يهود بنى عوف امة مع المؤمنين . . لليهود دينهم ، وللمســـــلمين دينهم — مواليهم وأنفســـهم الا من ظلم واثم ، فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته » (١)

ثم يعدد الرسول بقية اليهود الذين لهم مثل ما لبنى عوف من عهـــد .

وفى عهده لنصارى نجران يقول عليه السلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب أمان من اللـــه ورسوله للذين أوتوا الكتاب من النصـــارى — من كان منهم على دين نجران ، أو على شىء من نحل النصرانية كتبه لهم محمد بن عبد الله رسول الله الى الناس كافة . ذمة لهم من الله ورسوله وعهدا عهده الى المسلمين من

---

(١) كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة . جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى .

بعده . عليهم أن يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم « ليس لاحد من الولاة ، ولا لذى شيعة من السلطان وغيره نقضه » .

ثم يفصل حقوق النصارى فى كتاب آخر وعهد آخر وفيه يقول:

« ... للسيد الحارث بن كعب ، ولاهل ملته ، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية فى شرق الارض وغربها .. أعطيهم عهد الله وميثاقه أن احفظ اقاصيهم ، واحمى جانبهم ، واذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم وأن ادخلهم فى ذمتى وأمانى ، ولا يهدم بيت من بيوت بيعهم ، ولا يدخل شىء من بنائهم فى شىء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين فمن فعل ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله » .

والميثاق طويل فليراجعه من يشاء فى مصدره (١) وهو ميثاق يزخر بانبل ما فى الانسانية من عاطفة ، وأعظم ما فى الحياة من وفاء ورحمة وصدق ونبل .

وعندما بويع « أبو بكر » جدد العهد لنصارى نجران كرة أخرى:

« هذا ما كتب به عبد الله أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لاهل نجران .

« اجارهم بجوار الله ، وذمة رسوله على أنفسهم ، وارضهم ، وملتهم ، وأموالهم ، وحاشيتهم ، وعبادتهم ،

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة

وغائبهم ، وشاهدهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وبيعهم ،
وكل ما تحت أيديهم من قليل او كثير » . .

وكذلك فعل « عمر » فى العهــد الذى أعطاه لنصــارى المدائن وفارس :

« . . اما بعد فانى أعطيتكم عهــد الله وميثــاقه ، على انفسكم واموالكم وعيالكم ورجالكم واعطيتكم أمانى من كل اذى ، والزمت نفسى ان أكون من ورائكم ذابا عنكم كل عدو يريدنى بسوء واياكم . . وان أعزل عنكم كل اذى . . ولا يغير أسقف من أساقفتكم ، ولا رئيس من رؤسائكم ولا يهدم بيت من بيرت صلواتكم ، ولا يدخــل شىء من بنائكم الى بناء المساجد ولا الى منازل المسلمين ، ولا تكلفوا الخروج مع المسلمين الى عدوهم لملاقاة الحرب ، ولا يجبر احد من النصارى على الاسلام عمــلا بما انزل الله فى كتابه [لا أكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى]
« ولى شرط عليهم : الا يكون احد منهم عينا لاهل الحرب على احد من المسلمين فى سر ولا علانية ، ولا يؤوا فى منازلهم عدوا للمســلمين ، ولا يدلوا أحدا من الاعــداء ولا يكاتبوه . . الخ »

فى اى دنيا غير دنيا الاسلام نجد هذا التسامح الفريد . . ؟!
واين هــذا مما صنعته أســبانيا المسيحية بالأمس مع مسلمى الاندلس الذين ورثوا الاسبان حضارتهم ومدنيتهم . . ؟!

واين هذا مما تصنعه قوى التبشير المسيحى العالمية اليوم من كيد للاسلام وللمسلمين . . ؟!

ولنقرا الامان الذى اعطاه امير المؤمنين لاهل ايليا ، وهذا نصه كما يرويه الطبرى :

« هذا ما اعطى عبـد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين اهل ايليا من الامان .. اعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم . الا تسـكن كنائسهم ولا تهـدم ولا ينتقص منها شيء ولا من صـليبهم ولا من اموالهم ، ولا يكرهون فى دينهم ، ولا يضار منهم احد » .

الا ان اعظم مبادئ الاسلام لهو التسامح . وهو لا يضفى رواءه على قريبى العهد من الرسـول وحسب بل وعلى كـل من اعتنق الاسلام وفهمه ووعاه مهما تباعدت به العصور .

وهذا هو الدكتور حسن ابراهيم رحمه الله يحدثنا عن كرامزن ان « ازبك خان » وهو أول من أدخل الاسـلام الى روسيا ، وكان شـديد التحمس له ودائب الدعوة اليه ، علمه الاسـلام كيف يكون التسامح وغرس فضيلته فى فؤاده فتسامح مع رعاياه من المسيحيين ومنحهم الحرية التامة فى اقامة شعائرهم ، وسمح لهم بالتبشير بدينهم ونشره فى بلاده وحرر بهذا وثيقة تقول :

« ان كنيسة بطرس مقدسة ، ولا يحل لاحد ان يتعرض لها ، أو لاحد رجالها بسوء ، ولا أن يستولى على شيء من عقارها أو متاعها ، ولا أن يتدخل فى أمورها . ومن خالف أمرنا هذا بالتعدى عليها فهو مجرم أمام الله ، وجزاؤه منا القتل » (١) .

---

(١) التاريخ السياسى للاسلام جـ ١ .

الا حيا الله الاسلام ، وحيا اهله وذويه فى كل زمان ومكان .

ان هذه الوثيقة التى نطالعها الآن كتبت فى القرن الرابع عشر الميلادى وهى شبيهة بالعهد الذى قطعه على نفسه أمير المؤمنين فى السنوات الاولى من القرن الاول الهجرى . . !!

وعلى طول ما بين العهدين من قرون ، فكأنهما عهد واحد ، لانهما يسقيان بماء واحد ، وينهلان من روح واحد هو روح الاسلام العظيم الذى قال دستوره الخالد :

« ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » .

— ١١ —

والاسلام بعد ذلك دين حضارة لا يعرف التخلف ولا الجمود . واذ كانت الحضارة تبدأ بالمعرفة والعلم ، فقد علم الاسلام أبناءه أن يركضوا الى العلم ركضا ، ويتزاحموا حوله بالمناكب ، ويقبلوا عليه اقبال العاشق المشغوف .

والعلم الذى يحض الاسلام اتباعه عليه هو علم الدنيا والآخرة . العلم الذى يزكى النفس ويسمو بالروح ويعرف المسلم حق الله عليه . ثم العلم الذى يجعل الدنيا مكانا طيبا للحياة عن طريق الحضارة فى شتى مجالاتها وصنوفها النظيفة .

يقول القرآن الكريم :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . . ؟

ثم يتوج العلماء بتاج الكرامة حين ينعتهم بأنهم من أكثر الناس معرفة بالله وخشية له :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » .

والله رب العالمين يدعو عباده الى السعى نحو العلم ويعدهم بأن يمدهم من فضله بما لا يستطيعون الوصول اليه من علوم الدنيا وعلم الآخرة الا بما يهبهم من عطائه . ويمدهم من علمه :

« ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

ويحضهم القرآن الكريم على افراغ الوسع فى محاولة كشف المجهول مخبرا اياهم ان لكل نبأ مستقرا ، ولكل مجهول نهاية يحوله العلم بها الى معلوم .

« لكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون » .

ويدعو اتباعه الى الاستزادة من العلم دون توقف أو تردد :

« فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

ويمن الله على عباده بأنه :

« علم الانسان ما لم يعلم » .

واذا كان المعلم هو الله فمعنى ذلك أنه لا نهاية لما سيصل اليه الانسان من علم ومعرفة ، وهذا هو السر العظيم الذى يقف وراء المعرفة الانسانية التى لا تعرف النقصان أبدا ولا التوقف . وانما هى من مزيد الى مزيد .

ذلك لأن الله هو المعلم [علم الانسان ما لم يعلم] والمعلم سبحانه

لا حدود لقدرته ولا منتهى لعلمه ، ولهـــذا نجده سبحانه يقدم الينـــا واحدا من عباده الصالحين فاق غيره فى العلم بالله والعلم بالحياة فيقول:

« وانه لذو علم لما علمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

وعظمة المسلم ماثلة فى ان الله سبحانه دثره بالعلم الذى يعرفه به وبالعلم الذى يكشف له سعادته فى حياته ودنياه .

واذ يعلم الله ضعف النفس البشرية وانخداعها بمظاهر الحياة الباطلة وركونها اليها فقد دعا عباده المؤمنين ان يجعلوا لشغفهم بالمعرفة كوابح و « فرامل » حتى لا تســلك بهم مســـالك الشر والتــدمير ، والا ينقادوا فى غمرة حماسهم وراء العلم الذى يزخرف الحياة ناسين العلم الذى يصلهم بالله ويعرفهم به .

اجل ــ ان القرآن ليدعو المسلمين الا يكونوا من الذين :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخـــرة هم غافلون » .

وهنا يبين الفارق الكبير بين الحضارة التى تشاد على قواعد من علم مغرور ملحد ، والحضـــارة التى تشـــاد على علم ورع خاشـــع لله رب العالمين .

ان الاولى تتحول الى وباء يفتك بالبشرية ويضع مصـــيرها على الهوة الفاغرة .. بينما الثانية ترتقى بالانسان روحا ومادة الى آفاق مأمونـــة .

ويقودنا الرسول عليه الصلاة والسلام فى طريق المعرفة والعلم قودا حكيما ودءوبا . ويعلمنا فيقول :

« من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله به طريقا الى الجنـــة » .

والعلم النافع المضيء الذى يهـــدى القلوب الى الله ، ويهـــدى العقول الى الصواب ، ويحقق للحياة الانسانية السلام والأمن والتقدم وعافية الحياة هو العلم . . وهو ليس نافلة يتعلمه من يشاء بل هو كما يقول الرسول :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

ويجعل المعاناة فى تحصيله جهاداً .

« من خرج فى طلب العلم ، فهو فى سبيل الله حتى يرجع »

بل اكثر من ذلك يقول عليه السلام :

« من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبيين الا درجة النبوة » .

« اذا جاء الموت طالب العلم وهو يتعلم مات شـــهيدا »

« لا حسد الا فى اثنتين :

- رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق
- ورجل أتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها » .

« ان العلماء ورثة الانبياء . ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »

«ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلما رضا بما يصنع»
ونعود الى ســؤال المحنا اليه من قبــل ، هــو أى علم يريده الرســـول ؟

انه ــ أولا ــ العلم الذى يفسر للناس أمــور دينهم ، ويدفــع حياتهم فى طريق الفضيلة والخير ، ويوثق اتصالهم بالله .

« تعلموا الفرائض والقرآن ، وعلموا النــاس ، فانى مقبوض » .

ويقــول :
« نضر الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها ، وبلغها من لم يسمعها » .

فالعلم الذى يقدم للناس دين الله وسنة رسوله يأتى فى الصدارة من كل العلوم .

وبعدئذ يجىء العلم بكل أنواعه . . العلم الذى يشيد الحضارات، وينفع الناس وينمى عطاء الحياة .

فالعلم الذى يقود خطى الحضارة فى رشد، ويسهم فى دفع التقدم الانسانى وينتفع به فى توفير الراحة والخير للناس ــ المســـلمون مدعوون اليــه .

وفى هذا المجال يقول الرسول عليه السلام :
« اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث :
ــ صدقة جارية . .

— أو علم ينتفع به . .

— أو ولد صالح يدعو له . . »

فقوله عليه السلام [علم ينتفع به] ينتظم علوم الحياة التى تنفع الناس وتيسر لهم وسائل العيش ، وتزيد ثراءهم العقلى والروحى .

وهو أيضا المعنى بقول الرسول :

« الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها »

لقد وعى رسول الله قول الله له :

« وفوق كل ذى علم عليم » .

وقوله سبحانه :

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

فما هذا العلم الذى لا منتهى لابعاده ولا حصر لعلمائه ؟؟

انه علم الدنيا والآخرة . . علم النسك وعلم الحياة . . علم الكون بكل ما نستطيع أن نصل اليه من كشوف وأسرار . . العلم الذى تتم به عمارة الارض ، وازدهار الحياة ورفعة الانسان .

« اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

فلا حدود من تخوم الارض ، ولا من تخوم العقيدة ترد المسلم عن أخذ العلم النافع والحكمة الصادقة والمعرفة المتساوقة .

فالجهل هو الخطيئة الكبرى التى يعيذ الرسول منها أمته .

وكما يقول الاحنف :

« كل عز لا يوجد بعلم ، فالى ذل مصيره » .

ولقد وعى علماء الاسلام روح التوجيه النبوى الكريم فتفوقوا فى كل صنوف العلم وتألقوا ، ثم علموا الدنيا ، وشادوا الحضارات .

وهكذا بلغ العلم ارفع المنازل فى الأمة المسلمة والدولة المسلمة .

وهكذا كان فى كل عصور التاريخ الاسلامى يقود خطى الموكب العظيم الذى ظل يحمل راية التوحيد والايمان والفضيلة والخير والحضارة والتقدم قرونا تلو قرون .

وما نحسب العلم بلغ الغاية فى رشده وهديه ونفعه للناس ، واحيائه للروح وللعقل وللضمير دون انحراف أو زيغ أو تخريب مثلما بلغ من ذلك كله فى ظل الامة المسلمة .. خير امة أخرجت للناس !!

* * *

فالدولة المسلمة، وهذا مكانها من العلم، وهذه منزلة العلم فيها، اولى الدول بتبنى قضية الحضارة الانسانية والغيرة عليها والاسهام فى بنائها واخذ الحظ الوافر منها .

وعبر التاريخ نلتقى بالحضارة الاسلامية وهى توقظ العالم من سباته وتعلم أوروبا وغير أوروبا أن تستجيب لدعوة التمدن والتقدم وأن تأخذ مكانها — ولو فى آخر الصفوف — بين موكبها الهادر الذى كانت تقوده حضارة الاسلام وترعاه .

ان الجانب النظيف من حضارة أوروبا والغرب انما ولد فى حجر الحضارة الاسلامية وتغذى بلبانها .

ومن دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، وغرناطة ، وقرطبة وغيرها

كانت أنوار الحضـــارة تشـــع منادية اليها القاصـــدين والرواد من أوروبا وغيرها .

وكانت حضارة تقوم على المادة والروح دون أن تسلم احداهما للاخرى ، ومهما يكن من أمر الانفلات الاخلاقى الذى أصـــاب الدولة المسلمة فى بعض مراحلها فان الجانب الروحى بقى له نفوذه ودعاته والداعون اليه سرا وجهارا .. وليلا ونهارا ..

لقد اكتشف العقل الاســـلامى فى ظل دولته وبمعونتهـــا أروع الـــكشوف فى جميع فروع المعرفة البشرية وفى نفس الوقت كان ثبات ايمانه وشموخه أمرا ملحوظا ومثيرا .

كنا أساتذة العالم فى التجارة ، وفى العلوم بشتى أنواعها ، وفى الكشـــوف والمخترعات ، فى الطب .. فى الادب .. فى الفن .. فى العمارة .. فى الفلك .. فى الكيمياء .. فى الصناعة .. فى الزراعة .

ويوم كان تجار المسلمين يطوفون العالم برا وبحرا بتجارتهم ، كانت أوروبا تقذف بقراصـــنتها يعيثون فى ســـواحلها فســـادا ونهبا وتخريبـــا .

ان اعظم المخترعات التى تبهرنا اليوم يرجع الى آبائنا المسلمين العلماء فضل كشفها .

تقول « زجريد هونكه » (١)

« اننـــا نقف الآن مشـــدوهين متعجبين أمام تطـــور فن الصواريخ العظيم دون أن نســـائل أنفسنا الى من ندين بهذا الاختراع » .

---

(١) كتاب « شمس العرب تشرق على الغرب » .

ثم تثبت أنهم آباؤنا العرب المسلمون هم الذين يدين لهم الغرب والشرق بهذا الاختراع اذ كانوا أول من وضع نظرية تركيب البارود المندفع فى القرن الثانى عشر .

وعلوم الرياضيات والفلك والبصريات والحساب والجبر والارقام وعلم طبقات الجو — الارصاد الجوية — وعلم الميكانيكا .. واختراع الاجهزة الدقيقة المذهلة التى لا يكاد العقل يصدق انها اخترعت فى ذلك العصر البعيد .

وفى ظل الدولة المسلمة قام الخوارزمى وابن الهيثم والبيرونى

وحسب ابن الهيثم أن نظسرياته فى علمى الفيزيساء والبصريات لا تزال حتى يومنا هذا تحكم العقل الاوروبى الذى يسير فى ضوئها .

وحسب البيرونى أنه سبق « كوبرنيكس » وغيره .. سبقهم بخمسمائة عام الى اكتشاف أن الارض تدور حول نفسها ، ثم تدور مع الكواكب والنجوم حول الشمس ، وأن الشمس ليست السبب فى تفاوت الليل والنهار بل هى دورة الارض ذاتها .

وكان عندنا ابن سينا والفارابى وعمر الخيام .. ومن عجب اننا لا نعرف من عمر الخيام الا جانبــه اللاهى ، بينما الغرب وأوروبا يعرفان انه الرجل الذى طور علم الجبر واوصــله الى قمة عالية من الازدهار .

« بل ان من الانصاف والحق ان نقول : ان عمر الخيام قد وفق فى الارتقاء بعلم الجبر الى ذروة سامقة لم يعرف لها فيما بعد مثيــل الا على يد الفليسوف الفرنسى « ديكارت » (١) .

---

(١) المرجع السابق .

ومنا « ابن رشـــد » الذى يقـــول عنه ج. بيورى فى كتـــابه « حرية الفكر » .

«ان أول موجة من النور اضـاءت أوروبا كانت مؤلفات ابن رشـد»

وبينما كان الطب فى أوروبا واقعا تحت أيدى الدجالين من رجال الكهنوت حيث يعالجون بالشعوذة جميع أنواع الامراض حتى الجراحة كانت الدولة المسلمة تزخر بالاطباء المتقـــدمين والبارعين فى شـــتى التخصصـات .

تقول « زجريد هونكة » :

« أين هو البلد الذى عرف الطب بشموليته وعمقه وازدهاره كما كان الطب العربى ؟ واين هى الدولة التى عرفت مثل هذا الجمع الكبير من الاخصائيين فى شـــتى حقول الصـــحة ، وتركيب الادوية والعقاقير كما كانت الحال عند هذا الشعب ؟ وهل كان للمستشفيات الحديثة فى الاصقاع العـــربية آنذاك مثيل فى أى طرف من أطـــراف الارض . ؟ .. ان وسائل العلاج عندهم تتحـــدث ببلاغة عن عظمة أبحاثهم . كما ان علم الصحة عندهم أروع مثل يضرب .. ولم العجب والدهشـة ، والوضع كان كما نعلم .. الم يطالب الفرنجة مســـاعدة العرب الطبية ويلحوا فى التماسها » (١) .

اننا حين نقرأ لكتاب أوروبا والغرب عن حضـــارتنا فى الطب نجدهم يتحدثون عن مستشفيات كأعظم وأنظف ما وصلت اليه أوروبا اليوم ، كما يتحدثون عن أطباء لم ير العالم لهم مثيلا .

---

(١) المرجع السالف .

وانهم ليتحدثون عن الطبيب المسلم أبى بكر محمد بن زكريا الرازى فيصفونه بانه « أحد أعظم أطباء الانسانية اطلاقا » .. !!

ويهيمون هياما شديدا بالعالم المسلم « ابن النفيس » من علماء القرن الثالث عشر الميلادى — وهو أول عالم على ظهر الارض نفذ ببصره الى أخطاء « جالينوس » ونقدها . ثم اكتشف نظرية الدورة الدموية .

وعندنا ابن مسكويه وابن الخطيب والطبيب الطبرى الذين ابدعوا فى مجال الصحة والطب .

وكم من مكتشفات هائلة اكتشفها علماء الاسلام والعرب ، انتحلها وادعاها اوروبيون وظاهرهم على ادعاءاتهم كتاب وعلماء أوروبيون .. !!

ولسنا نحن الذين نقرر هذه الحقيقة المؤسفة بل تقررها المستشرقة الالمانية « زجريد هونكة » فتقول : (١)

« هذه المعارف المبتكرة العظيمة الشأن .. هذه التحقيقات العلمية الرائعة التى قدمتها العبقرية العربية الاسلامية هدية منها للانسانية عامة ، ولاوروبا خاصة ، هل رددناها الى مصدرها ، وأرجعنا فضلها الى صانعيها .. ؟!

« لقد كان الامر على العكس تماما ، فان أغلب الاكتشافات العربية [الاسلامية] حملت معها ، ولاتزال

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب .

تحمل حتى يومنا هذا اسماء انجليزية ، أو فرنسية ، أو المانيــة » .

لقد ظلت مؤلفات آبائنا المسلمين تدرس فى أوروبا مئات السنين ولم يكن فى أوروبا كلها عالم واحد لم ينهل — فى مجال تخصصه — من كتب آبائنا السالفين .

لقــد كان آباؤنا المسلمون ســادة حضــارة من اعظم وأروع حضارات العالم وليس ثمة ما يمنع ، بل هناك ما يدفع لكى نستأنف مسيرتنا الحضارية فى عالم ينقصه مما نملك ، الشىء الكثير .

فالدولة المسلمة دولة حضارة وتقدم ، وهى مسئولة عن تقــدم الحياة مثل مسئوليتها عن دين الله .

يقول مؤلف « الاسلام قوة الغد العالمية » :

« ان قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن، ولم تنجح الاحداث التى مرت بالمسلمين فى القرون الاخيرة فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية .

« ان الروح الاسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة ومشاعرهم . وستظل هناك مادام ثمة شعوب اسلامية ربطت مصــيرها بمصير الاســلام ، واعتقدت أن الرباط الجامع بين أجناسها هو الاسلام .

« ان روح التعاطف والتوادد بين المســلمين هو السبب الرئيسى فى تجميع القوى الوطنية على طريق « القومية الاسلامية » .. وانه من الممكن للمسلمين أن يتقدموا فى العلم والتكنولوجيا كما تقدم الاوروبيون وهم يومئذ لن

يكونوا بحاجة الى رباط يجمع شملهم سوى الاسلام وهو قائم فعلا ولم يفقدوه بعد » .

ان عظمة الاسلام الفريدة ماثلة فى انه يسير بالتقدم المادى والتقدم الروحى فى طريق واحدة . وهذا يجعل مستقبله مستقبلا للبشرية كلها .. ذلك أن الحضارة الغربية المعاصرة تعانى هذه الآفة القاتلة . وهى أن التقدم المادى يمضى هادرا وسريعا بينما تقدمها الروحى متخلف جدا وبطىء كذلك .

ويوم يكتشف الوعى الانسانى حاجته الى المواءمة بين تقدمه المادى والروحى سيجد الاسلام فى انتظاره يمنحه حضارة المادة وحضارة الروح ، ويهديه سواء السبيل .

وهذه حقيقة يجب على المسلمين أن يستعدوا لتقبلها وحمل تبعاتها .

والدولة المسلمة فى عصرنا هذا مطالبة بأن تصادق اكثر واكثر حركة العلم .

ونحن نعنى بحركة العلم ذاك التطور الخلاق الذى يقطع الحياة وثبا مخلفا وراءه العمى الذين لا يبصرون ، والصم الذين لا يسمعون، والمقعدين الذين لا يواكبون ركبه ولا يتابعون خطاه .

ولا يعنى مسايرة حركة العلم والحضارة ان نفقد شخصيتنا الاسلامية وتقاليدنا ، ونذهب نقلد الغرب فى شكليات الحياة المنحلة ومظاهرها الماجنة والرخيصة . بل يعنى أن نحيا فى مستوى تعاليمنا

ودينتا وتقاليدنا حيـــاة متحركة ومتجـــددة وملتقية مع روح العصر وانجازاته الجادة .

على الدولة المسلمة اليوم ـــ كل دولة ـــ أن تتسلح بأسلحة العصر لا عسكريا فحسب ، بل فى كل مجالات الحياة . .

عليها أن تقوم بتصنيع مواردها وبلادها ، وأن تأخذ بحظ وافر من احدث ما وصـــل اليه العلم والتكنولوجيا أولا بأول ، وأن تتيـــح لشبابها فرصة التزود الكامل بالمعرفة والعلوم . ونحن فى هـــذا لن نكون مقلدين لغيرنا ، بل سنكون قد استأنفنا حضـــارتنا التى غذت العالم من قبل وعلمته لغة الحياة .

علينا نحن المسلمين أن نفيد من كل فرص التقدم النظيف دون أن نسلم رقابنا للاغلال ، وديننا للضياع ، وروحانيتنا للجفاف .

علينا أن نذكر أن دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لايزال قائما . وأن الاســـلام الذى نحمـــل لواءه لم ينته ولن ينتهى دوره فى ترشيد الحياة وهداية البشر ، كما لن تنتهى حاجة البشرية اليه .

وعلينا أن نعمق ايماننا بأن الاسلام :

دين ، ودولـــة ..

حق ، وقـــــوة ..

ثقافة ، وحضارة ..

عبادة ، وسياسة ..

ملحق



بعد الفراغ من هذا البحث يطيب لى ان اضرب مثـلا ، واقدم نموذجا للدولة المسلمة وللحاكم المسلم .

ولن أختار هذا النموذج من بين الخلفاء الراشدين . فقد يقال : تلك امة قد خلت .. وذاك طراز شـهد الوحى ورباه الرسـول . سأختار النمـوذج من العصر الاموى . ذلك العصر الذى شـهد انحرافات بالغة ، والذى تنبأ له الرسول بأنه سيكون نهـاية عصر الخلافة الراشدة وبداية عصر الملك العضوض .

سأختار « عمر بن عبد العزيز » .. !!!

الرجل الذى حاول نقل عصر الوحى بمثله وفضـائله الى دنيا هائجة مائجة ، مفتونة مضطربة ، متلفعة بالظلم والقهر ، متعفنـة بالتحلل والترف . ثم نجح فى محاولته نجاحا منقطع النظير .. !!

لقد جعل من الملك العضوض الذى شاده الامويون عبر ستين عاما ـــ قبل مجيئه ـــ خلافة اوابة ، بارة ، عادلة ، تمثل كل فضـائل وسمات عصر النبوة والوحى .

ومتى .. ؟

ليس فى عشرين عاما ، ولا فى عشرة أعوام .. بل فى عامين ، وخمسة اشهر ، وبضعة أيام .. !!!

وهذا النموذج يرينا « روح » الدولة المسلمة و « ضـميرها » كما يرينا شكلها الذى كان مثاليا بالنسبة لعصرها .

بيد أنه لا يرينا الشكل « النهائى » للدولة المسلمة .. ففى عصرنا هذا لابد للشكل ان يختلف بقيام المؤسسات الدستورية ، والمجالس النيابية التى تضبط دور الحاكم ، كمنفذ لاحكام الله ، ووكيل عن الامة ولابد من صحافة حرة ، ومعارضة حقيقية وفعالة ، يخشاها الحاكم ولا تخشاه ؛ ويتلمس عندها الصواب والصدق وسواء السبيل .

ان النموذج الذى يقدمه لنا « عمر بن عبد العزيز » يريناه فى أية آفاق رفيعة شامخة تحلق الدولة ويحلق الحاكم حين يكون الاسلام الحق هو المنهج ، وهو القدوة ، والأمام ..!!

ولن أقدم هذا النموذج فى كتابة جديدة . بل سأستعير فصلا من كتابى « معجزة الاسلام : عمر بن عبد العزيز » ذلك الفصل الذى كان الكتاب قد تضمنه تحت عنوان « المنهج » ..

راجيا ان يكون تتمة مباركة لحديثى هذا عن — الدولة فى الاسلام — ..

* * *

كتب اليه واليه على خراسان يستأذنه فى ان يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها ، قائلا فى رســـالته للخليفة « انهم لا يصلحهم الا السيف والسوط » ..

فكان رده التقى الحازم :

« كذبت ..

بل يصلحهم العدل والحق ، فابسط ذلك فيهم ، واعلم ان الله لا يصلح عمل المفسدين » . !!!

* * *

العدل ، والحق .. !!

بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحب المستقيم ، ستمضى خطاه .. آخــذا معه على ذات الطريق جميــع الناس : أمراءهم ، وعامتهم .. اغنياءهم ، وفقراءهم . أقوياءهم ، وضعفاءهم . !!

والخليفة ، الذى نراه دائم البكاء ، بل النحيب . كلما ذكر الله واليوم الآخر .. والذى ينتفض تحت وقع تقاه انتفاضــة العصفور ، حتى لنحسبه لا يصلح لغير الصومعة يتحنث فيها ويتعبد .. !!

هذا الخليفة ، سيبهرنا الآن ونحن نطالع منهجه واســـلوبه فى الحكم حيث تطل علينا من وراء دموعه المنثالة روح عالية تناضـــل فى جهاد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدالة والحق .. وحيث تطل علينا كذلك بصيرة نافذة لا يفلت من ضيائها شىء ، وارادة حازمة لا يهولها صعب ، ولا يجفلها خطر ..

وفجاة سنرى العينين السابحتين فى دموعهما دوما ، تحدقان كعينى الصقر .. وترسلان بريقا أخاذا ، يقنع كل من يتلقاه أنه أمام عينين ثاقبتين ليس الى خداعهما سبيل ... !!

* * *

ان المصاعب المتطاولة ، والاخطار المحدقة ، والمؤامرات المتساوقة لن تزيد الارادة الرافعة لواء العدل والحق الا تقدما ومضاء .

فلتغن المواقب لنفسها .. اما هو فلن يبالى بما كان ولا بما سيكون منها ... بل سيضع يمينه فى يمين الحق ، ويمضى معه الى حيث يدمدمان معا على مظالم وظلمات الاعوام الستين التى سبقته فى الحكم الأموى .. والى حيث يجعلان ظلماتها نورا .. وهجيرها فردوسا .. وترفها قناعة .. وانحلالها ورعا .. واستعلاءها تواضعا .. وقهرها رحمة .. ورعبها أمنا .. !!

وبين يدى عزمه الربانى القدير ، راحت كلماته تقرع أسماع الغطرسة ، والتحدى :

« والله ، لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل الا بتقطيع اوصالى واعضائى ، لامضيت ذلك وأنا سعيد » . !!!

«ووالله ، لو لبثت فيكم خمسين عاما ، ما أقمت الا ما أريد من العدل » ... !!

فلنتابع منهجه لنرى ..

ولكن علينا الا ندع التفاصيل الكثيرة تشغلنا ببهرها عن الاسس والقواعد .

وعلينا ان نقتصد فى ذكر الوقائع والمشاهد التى تحكى خصائص المنهج وسماته ، حتى يفىء علينا هذا التركيز فى الرؤية تركيزا مماثلا فى نشوة العقل وغبطة الروح ..

اى اننا سنكتفي من المنهج بنقاط ارتكازه ومحاوره التى تدور حولها بقية التطبيقات والتفاصيل .

وتتلخص هذه المحاور فى : ـــ

* نظرته الى دور الدولة ووظيفتها ..
* نظرته الى دور الشورى ووظيفتها ..
* نظرته الى دور المال ووظيفته ..
* موقفه من وحدة الامة وسلامتها ..
* اسلوبه فى العمل ..

* * *

ـــ فاولا : الدولة قـــدوة ..

ان الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بســـلطان الدولة لا يأتون امرا مذكورا .. فتلك سنة مألوفة معتادة . أن تحمى القوة القـــانون .

أما الحكام الذين يحمون القانـــون وينفذونه بالقـــدوة ، فأولئك الذين يجاوزون المألوف المعتاد الى الخوارق والمعجزات .

ولقد كان « ابن عبد العزيز » واحدا من هؤلاء .

لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها، اذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى .

والدولة عنده تتمثل فى كل الاجهزة العاملة ، لكن يأتى فى المقدمة دائمـــا :

ا ــ الخليفة بوصفه رئيس الدولة .
ب ــ الولاة بوصفهم حكام الاقاليم .
ج ــ القضــــاه .
د ــ أمناء بيوت المال .

والخليفة ــ اى خليفة ــ وان وضعته وظيفته ومسؤولياته على رأس الدولة ، فانه يظــل عاجزا عن أداء دوره ما لم يقف معه فى مستواه أو قريبا من مستواه ولاته وقضاته وأمنـــاؤه على الاموال العـــامة .

ها هو ذا « عمر » يقول :

« ان للسلطان أركانا لا يثبت الا بها . .

* « فالوالى ، ركن . .
* « والقاضى ، ركن . .
* « وصاحب بيت المال ، ركن . .
* « والركن الرابع ، أنا » . . !!

واذن ، فلكى تكون الدولة قدوة فى حمل دين الله وحقوق الناس، لابد أن تتشـــكل هذه القدوة من ســـلوك هؤلاء الاربعة مجتمعين .

الخليفة ، وولاته ، وقضاته ، وخزنته .

ولكى تكون الدولة قدوة ، لابد أن تكون بمسؤوليها جميعا ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين ، طليعة العمل ورائدته . .

وهكذا راح « عمر » يضع الدولة كلها وهو على رأسها فى مكان القدوة ، حاملة وحاملا معها كل ما تلقيه القـــدوة من مسؤوليات ، وباذلا كل ما تتطلبه من تضحيات .

وقبل أن يأمر ولاته ، وقضاته ، وخزنته ، بدأ بنفسه .

لقد تلونا من قبل ، كلمته العظيمة :

« لست الا كأحدكم . .
غير انى أثقلكم حملا » .

وهنا ، نرى طريقته فى وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم ، الحازم ، الفريد .

لقد كان دخله السنوى حتى اليوم الذى ولى فيه الخلافة اربعين الف دينار . . هى حصيلته من مخصصاته كأمير أموى . . ومن الارض التى كان يملكها . . ومن نصيبه الوفير من ميراث أبيه عبد العزيز بن مروان .

والآن ، تنفتح بصيرته ، على الحقيقة العميقة ، فيرى ان هذا الثراء الفاحش الذى يمتلكه أمراء بنى مروان — وهو معهم — لم يبلغوه بعرق الجبين . . وما هذه الثروة المتمركزة فى أيدى حفنات من الأمراء والسادة ، الا حقوق الملايين واقواتها سلبت منها بغير حق ، وبغير سلطان . . !!

ومن فوره ، اتخذ قراره الحاسم بالغاء كافة مخصصات الامراء ، ومخصصات حرسهم وخدمهم ، وقراره بنزع الاقطاعيات الزراعية منهم جميعا ، وردها الى بيت المال . .

وبدأ بنفسه ، فتخلى عن جميع أملاكه وامواله !! حتى ارض « فدك » فى « خيبر » وكانت خير ممتلكاته واثمنها ، ولم يكن احد اقطعه اياها ، بل ورثها عن ابيه .

لكنه سأل نفسه ومن اين جاء بها ابوه . . ؟ !

لقد أفاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم خيبر ، فخصصها لابناء السبيل . وظلت كذلك حتى ملك الامر معاوية فوهبها لمروان .. ومن مروان . وصلت الى ابنه « عبد العزيز » والد « عمر » .

نقول : حتى هذه الارض ، تخلى عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمها لملكية الدولة ، وان يصرف ريعها ونتاجها حيث كان يصرف على عهد الرسول وخلفائه ..

لس ذلك فحسب .. بل لقد تنازل عن كل درهم فى راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين .. !!

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة ارض صغيرة كان قد اشتراها بحر ماله ، ولم تكن تغل اكثر من مائتى دينار فى العام ، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة .

مائتا دينار فى العام ، لرجل كان دخله — منذ أيام لا غير — اربعين الف دينار .. !!

مائتا دينار ، لحاكم أعظم ، واكبر ، واغنى امبراطوريات عصره وعالمه ، يعيش بها طول العام وعرضه ، وتعيش معه اسرته التى كانت هى الاخرى — منذ ايام — لا غير ، تخب فى النعيم خبا .. وتعب من المباهج عبا .. !!

ولكن ، اى باس ؟!

اليس قد رفع الحق شريعة والعدل منهاجا ؟

فليكن حسبه الا تسقط الراية من يمينه .. وليكن حسبه أن يحلق بها فى مستوى تنقطع دون بلوغه الانفاس .. !!

كل أرضه تركها للدولة ..

كل ثروته النقديه ، دفعها الى خزانة الدولة .

بل لقد جمع ثيابه وحلله الرائعة ، وحلل زوجته واولاده ..

ثم جمع مراكبه وعطوره ومتاعه ؛ ثم دفع ثمنها الذى بلغ ثلاثة وعشرين الف دينار الى بيت المال .. !!

ثم حرم نفسه حتى حقها المشروع فى راتب الخلافة الذى كان يستطيع أن يتنازل عن نصفه أو عن ثلثه ، لكنه رفضه جميعا الى آخر درهم منه .. وراح يعيش بعائد أرضه الصغيرة ــ مائتى دينار فى العام ــ بواقع ثلاثة ارباع دينار فى اليوم ، لامير المؤمنين ، وزوجة امير المؤمنين ، واولاد امير المؤمنين ... !!

أفما كان يكفيه أن ينفرد هو بأعباء القدوة ، تاركا أهله وأولاده يحيون ولو فى مستوى حياة أوساط الناس .. ؟؟

انه يعتبر هذا ــ لو حدث ــ احتيالا على المسؤولية ، وهروبا من تبعات القدوة ، ويرى النار تمد اليه السنتها اللاهبة ، لتطوقه حسابا له وعقابا .. !!

ومن ظن أننا نبالغ فى التصوير ، ونسرف فى صبغ الالوان ، فليطالع هذه الواقعة :

لقد عاد يوما الى داره بعد صلاة العشاء ولمح بناته الصغار . فسلم عليهن كعادته ، وبدلا من أن يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن . رحن يغطين أفواههن بأكفهن ويتبادرن الباب .

فسأل : ما شأنهن .. ؟؟

فاجيب : بانه لم يكن لديهن ما يتعشين به سوى عدس وبصل .
فكرهن ان يشم من أفواههن ريح البصل فتحاشينه لهذا . .
فبكى أمير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

« يا بنـــاتى . . .
ما ينفعـــكن أن تعشـــين الالوان والاطـــايب ، ثم يذهب
بأبيكن الى النـــار . . ؟؟ . . »

وترى احدى بناته الصغار صديقة لها تزين اذنيهـــا بلؤلؤتين
جميلتين ، فترسل احداهما الى أبيها ضارعة أن يشترى لها مثلها .

ويدعو أمير المؤمنين خادمه ، ويأمره أن يجىء بجمرتين ملتهبتين
.. ثم يطلب ابنته فيقول لها :

« ان استطعت أن تجعلى هاتين الجمـــرتين فى أذنيك ،
جئتك بلؤلؤتين كهذه » . . !!

ان مسؤولية القدوة — اذن — لا تنحصر فيه ، هو الخليفـــة
والحاكم . . بل — وحسب منهجه وتقديره — تنال أهله جميعـــا ،
حتى بنياته الصغار . . !

وهكذا راح يحملهم على التضحية فى سبيل المسؤولية والقدوة .

اقترب يوما من زوجته فاطمة ، وقال لها :

« انك لتعلمين من أين اتـــاك ابوك — عبـــد الملك بن
مروان — بهذه الجواهر ، فهل لك أن اجعلها فى تابوت ،
اضعه فى اقصى بيت المال ، وأنفق ما دونه ، فان خلصت
اليه أنفقته فى حاجات المسلمين » . . ؟؟

ولم يكن قد بقى لفاطمة سوى هذا الحلى وهذه الجواهر ، وهى عزيزة عليها ، لانها هدية ابيها لها فى عرسها وزفافها ..

ولكنها لا تجادل زوجها « القديس » حتى فى هـــذه .. وتجرد منها نحرها ومعصميها ، فى غبطة ورضا .. !!

* * *

ويغادر ـــ امير المؤمنين ـــ قصور الخـــلافة ، ويأوى الى دار متواضعة ..

ثم لا تشهد هذه الدار ايقاد النار الا لماما ..

ويأخذ على نفسه العهد الا يستحدث لنفسه شيئا من اشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه ..

يحدث ابن عياش ، فيقول :

« كان لعمر مرقاتان يرقى عليهما من صـــحن داره الى حجرته ..

« فتهدمت احدى المرقاتين ، فأعاد بناءها رجل من اهله .

« فلما جاء « عمر » ووجدها . سأل : من صنع هذا ..؟

قالوا : فلان . قال : الى به ..

« فلما جاء قال له عمر . ويحك أنفست على « عمر » أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة .. ؟!

« والله ، لولا أن يكون هدمى لها افســـادا بعد اصلاح لهدمتها ورددتها الى ما كانت عليه .. » !!!

* * *

ويدخل عليه فى داره احد خاصته المقربين ، فيجده بركن منها تغطيه الشمس ، وقد دثر جسمه كله فى ازار .. وحسبه الزائر مريضا ، فسأله ما باله .. ؟

فأجاب أمير المؤمنين :

« لا شيء ، غير انى أنتظر ثيابى حتى تجف ..

قال زائره : وما ثيابك يا امير المؤمنين .. ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وازار .

قال صاحبه : الا تتخذ قميصا آخر ، ورداء ، وازارا .. ؟

قال الخليفة : كان لى ، ثم بليت .. !!

قال الزائر : الا تتخذ سواها .. ؟؟

وهنا شرقت خلماته بدموعه ، وراح يجهش بالبكاء مسندا جبهته على راحتيه ، مرددا آية القرآن الكريم :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » .. !!!

ولما كان يريد للدولة فى عهده أن تكون رحمة وحنانا ، فقد راح يمزق عنها كل اقنعة الصلف والكبر والتمايز .

وايضا ، بدأ بنفسه ، فمنع الحراس ان يسيروا بين يديه . بل منعهم كما منع الناس جميعا ان يقوموا له حين يطلع عليهم ، وقال لهم:

« انما يقوم الناس لرب العالمين » !!

وناداه يوما رجل من المسلمين قائلا : « يا خليفة الله فى الارض » . . فأخذته الرعدة الصالحة ، وصاح فى الرجل :

« مه . .

« انى لما ولدت أسماني أهلى « عمر » ، فلو ناديتنى « يا عمر » اجبتك . .

« ولما كبرت اخترت لنفسي كنية ، فكنيت « أبا حفص » ، فلو ناديتنى « يا أبا حفص » أجبتك . .

« ولما وليتمونى أموركم سميتمونى « أمير المؤمنين » ، فلو ناديتنى « يا أمير المؤمنين » أجبتك . .

« أما خليفة الله فى الارض ، فلست كذلك . .

« انما خلفاء الله فى الارض رسله وأنبياؤه » . . !!

ومنع الدعاء له فوق المنابر فى خطبة الجمعة . وارسل بذلك كتابا حازما الى ولاته فى جميع الاقاليم ، قائلا فيه :

« مروهم فليصلوا على النبى عليه السلام . وليكن فيه اطناب دعائهم وصلاتهم . .

« ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات . .

« وليستنصروا الله . .

« وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين . .

« وليدعوا ما سوى ذلك » !!

* * *

واذا كان قد حمل واهل بيته معه مسؤولية القدوة على هذا

النحو المجيد والفريد .. اذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ، فان هذا لا يكفيه ، بل لابد ان يحملها ايضـــا أمراء بنى مروان جميعا . طائعين ان شاءوا .. وان ابوا فكارهين .. !!

لن يدعهم يتبذخون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأ ومغنما .

اذا كان ولابد ، فلتكن هـــذه القرابة ملجـــأ لهم من أطمـــاعهم وشهواتهم .. ومغنما بالتزامهم منهج امير المؤمنين .

أما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم فى عهده كدنياهم قبل عهده .

لن يظلوا طبقة فوق الامة .. ولن يدلف الى قصورهم وجيوبهم ثلث الدخل العام للدولة ، كما كان امرهم من قبل ان تهل على الدنيا ايام الاغر ابن عبد العزيز .. !!

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الابقاء على بعض امتيازاتهم فلما فشلوا راحوا يناورون ، ولما أخفقوا راحوا يهددون .

ولكن رجل القداسة وقف لهم كالقدر ، واحكم وضع الشكائم على غرورهم واهوائهم ، ثم دفع بهم جميعا امامه على طريق العدل والحق ، مصفيا ترفهم المنهوم .. !!!

حدث يوما أن أرســـل الى كل امير واميرة بقـــدر من المال ، يدبرون به أمرهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشنة ، فتنادوا واجتمعوا ، وقرروا أن يوفدوا اليه صـــديقا له يرجوه باســـمهم ان يرفع لهم العطاء .

فكان جوابه لهذا الصديق :

« والله لقد ندمت على هذا الذى اعطيته لهم ، وانى لاعلم ان فى المسلمين من هو احق به ، واحوج اليه منهم » .

وعاد مبعوثهم اليهم يقرع اسماعهم بكلماته المنذرة ، ويقول لهم:

« يا بنى امية ...

« لا تلوموا الا أنفسكم ، فقد عمدتم الى صاحبكم — عبد العزيز بن مروان — فزوجتموه حفيدة « عمر بن الخطاب » فجاءتكم بعمر بن الخطاب ، ملفوفا فى ثياب عمر بن عبد العزيز ، فلا تلوموا الا أنفسكم » !!

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الولاة والقضاة ، والامناء على الاموال العامة — أولئك الذين سمعناه من قبل ينعتهم بأنهم والخليفة معهم يشكلون اركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى ان الولاة ، بحكم كونهم نوابه فى حكم الاقاليم ..

والقضاة ، بوصفهم أهل الفصل فى مصاير الناس بما يملكون من كلمة الشريعة والقانون ..

وامناء بيوت المال ، بما لهم من سيطرة مباشرة على الاموال العامة وارزاق الناس .

نقول : كان يرى فى هذه المناصب اخطر مناصب الدولة واكثرها ثقلا وحساسية .. كما كان يرى فى استقامة أمرها العامل الاول والأهم لتمكين الخليفة من حمل مسؤولياته فى قسطاس وسداد .

وهكذا راح القديس يستكمل سمات القدوة للدولة ، باختيار ولاته ، وقضاته ، وأمنائه فى حرص من يختار عافيته ومصيره !!

ولقد كان من المفروغ منه ، أنه لن يجد من هـؤلاء من هو فى مستوى ورعه ، وشموخ نسكه وفضائله ، فراح يجتهـد فى العثور على من يكونون فى مستوى رجائه وثقته . .

وسارع ، فعـزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا فى خـدمة المظالم السابقة . ثم ولى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة امثال : « ابى بكر ابن حزم » و « عبد الرحمن القشيرى » و « عدى بن أرطاة الفزارى » وآخرين من طرازهم واخوانهم .

وكان اول ما اوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :

« كونوا فى العدل والاصلاح والاحسان ، بقدر من كانوا قبلكم فى الظلم والفجور والعدوان » . . . !!

كذلك ، كان أول ما قدم به ولاته للناس هذه الكلمات الامينة :

« انى قد وليت عليكم رجالا . .

« لا أقول انهم خياركم ، ولكنى أقول : انهم خير ممن هم شر منهم » !!

انه رجل يضـع ذاته كلهـا فوق الميزان . . وان كل حركاته وكلماته وقراراته ، ومشاعره لتتحرك بقدر معلوم . !!

ويمضي ولاته الى أقطارهم ، ويسهرون على مسؤولياتهم فى ولاء صادق . . تقودهم على الطريق وتثبت أقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس . . هذه السيرة التى كان اريجها ينتشر انتشار الضياء وعبيرها يفوح ويهب هبوب الرياح والبشريات . . !!

لقد راحوا يخجلون من كل تقصير يبدو من احـــدهم .. واذا سولت لاحدهم نفسه ، شفاها من وساوســـها بمجرد تذكر خليفته القديس فى حياته الشظفة ، ورقاعه البالية !!!

وراح الخليفة يواليهم برسائله ووصاياه .. وصية من بعـــد وصية وكتابا وراء كتاب ..

لنقرأ واحدا من هذه الكتب :

« .. اما بعــــد

فان من ابتلى من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلى ببلية عظيمـــة !!

« فنسأل الله عافيته وعونه ..

« وانى أدعوك أن تقف نفسك فى سرك وعلانيتك ، عند الذى ترجو به النجاة من ربك ..

« تذكر ما سلف منك من خطأ فأصلحه ، قبل أن يتولى اصلاحه غيرك ..

« ولا يمنعك من ذلك قول الناس ..

« وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحا فى دينهم واعراضهم .

« واستر كل عوراتهم ..

« واملك زمام نفسك تجاههم اذا هويت ، واذا غضبت »!

* * *

وكما أحسن اختيار ولاته ، أحسن اختيار قضاته ، وأمناء بيوت المـــال .

وأمر هؤلاء وأولئك ، أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الامناء على دين الله ، ودنيا الناس .

وراحت أضواء قداسته وقدوته تتعـــالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية ، وسعت الدولة كلها والامة جميعها بأنوارها الغامرة وهداها الوثيـــق .

* * *

ـ وثانيا : الشورى ضرورة ..

وننتقل الآن الى المحور الثانى من محاور منهج الحاكم القديس وأسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفا غذا يمتاز بالعمق والشمول

لقد أدرك أن كل ما يشيده من دنيا صالحة ، وعالم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره وانمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه وتمثل له هـــذا السياج فى توســـيع قاعدة المســـــئولية حتى تنتظم أصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين .

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة .. وبعث رأى عام ناصح ، وصادق ، وشجاع . ينقد الاخطاء ويسهم فى اصلاحها .

لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد .. ولكن ديموقراطية الحاكم مع ذلك كانت تتبين وتســـفر كالشمس من خلال اســـلوبه فى الحكم ، وطريقته فى اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبل النقد ، وسماع كلمة الحق . ونظرته الى الامة التى يحكمهـــا ، ومدى ولائه لحقوقها وحرياتها .

وبهذا المعيار والمسبار ، يقف « عمر بن عبد العزيز » فى هــذا المجال وكأنه نسيج وحده !!

لقد احاط نفســـه بالابرار الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، والذين لا يزيفون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحق بالباطل ، وان قطعت منهم الرقاب ..

جمعهم حوله ، يفكرون معه .. بل لقد كان يوصى بعضهم أن يجلس تلقاءه وهو فى مجلس الحكم ، ويضـــع عينيه المفتوحتين على حديثه ، وحركاته فإن نسى فقال كلمة ، أو أتى حركة فيها شبهة من خطأ ، نبهوه على الفور باشارة ، تعارف واياهم عليها ..

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست ترفا .. وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم وشاع الحق ، واستوثق العـــدل ، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم وكما ولدتهم امهاتهم احرارا .

من اجل ذلك ، راح فى سرعة الضوء يخلق رأيا عاما صـــادقا امينا فى طول الدولة وعرضها .

وراح يضـــع الحاكمين والمحكومين وجها لوجه أمام مسئوليتهم المشتركة ، بل الواحدة فى دحض الخطأ والتزام الصواب .

فيكتب للولاة قائلا :

« انكم تعدون الهارب من ظلم امامه عاصيا ..
« الا ان أولاهما بالمعصية الامام الظالم » !!

ثم يكتب الناس فى شتى الاقاليم قائلا :

« اى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة ، فلا طاعة له عليكم . وقد صيرت امره اليكم ، حتى يراجع الحق وهو ذميم . . !! »

ويرسل الى احد ولاته قائلا :

« قد كثر شاكوك . . وقل شاكروك . . فاما اعتدلت ، واما اعتزلت » !!

هكذا رفع سلطة الشعب فى وجه سلطة الحكم ، واسلم نواصى ولاته وعماله للراى العام يقودهم على طريق الحق طائعين او كارهين .

ولكى يدعم هذه السلطة ، فتح ابوابه على مصاريعها لكل شاك أو متظلم من حاكمه وواليه . . وارسل منشورا موجزا الى جميع الاقطار :

« من ظلمه امامه مظلمة ، فلا اذن له على » . .

اى ليقتحم على دارى ، غير منتظر اذنا ، وغير واقف بباب !!

* * *

وانه ليبهرنا اسلوبه الفريد فى بعث الراى العام الشجاع ، وتزكية حرية النقد ، وشد زنادها الى اقصاه .

ففى سبيل ذلك نراه يرسم من بيت المال جوائز مغرية لكل من يكشف عن خطأ ، ويهدى الى صواب .

ولنطالع فى اجلال ، المنشور الذى كتبه ، ثم امر ان يقرأ على الناس فى المواسم والمحافل والمجامع :

« أما بعــــد . .

فايما رجل قدم علينا فى مظلمة نردها ، او أمر يحيى الله به حقا ؛ او يميت باطلا ، أو يجيء بخير . فله منا ما بين مائة دينار الى ثلاثمائة دينار . بقــــدر ما يتكاعده فى ذلك من طول السفر وبعد الشقة » . . !

اليس عجبا هذا الذى نقرا ونرى . . ؟؟

الا ، وان اعجب من ذلك ، أن بطــــل هــــذا كله رجل لم تــــكن بيئته ولا عصره بقادرين على تشكيل بنائه . .

لكنها صبغة الله . . ومعجزة الاسلام . . !!

ولكم كان صادقا حين قال :

« لو وكلنى الله الى نفسى لكنت كغيرى » . . !!

لقد راح يضرب المثل الاسمى والقدوة الباهرة فى تقبل النقد ، وهو الذى لم يعرف الناس له ــ خلال خلافته كلها ــ خطأ واحــــدا يستأهل النقد والتفنيد . .

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول له : الى اين ؟ ولماذا لا !

هنالك يربت على كتفه ، ويدنيه منه ، ويقول له :

« زدنى يا اخى ، جزاك الله خيرا » !!

انه يلتمس الحكمة والصواب وراء السنة الصادقين حتى حين يكون احدهم طفــــلا .

قدم عليه وفد من المدينة يوما ، وتقدم من بينهم غلام صغير ليتحدث باسمهم ويعرض قضيتهم . فتملاه أمير المؤمنين ، وقال له :

« يا بنى : دع القول لمن هو أسن منك » .

ويبدو أن الغلام العربى الاصيل كان يحمل نبوغا مبكرا ، فقد أجاب الخليفة من فوره :

« يا أمير المؤمنين . .

المرء بأصغريه : قلبه ولسانه . .

« ولو كان الامر بالسن ، لكان فى المسلمين من هو أحق بهذا الامر منك » . . !!

وفجأة ، تنثال دموع الغبطة والفرح من عينى القديس ، ويتهلل وجهه ، ويهتف بالغلام :

« صدقت . . صدقت . .

« عظنى يا بنى . . !! »

وان أحد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوما شاهرا سيفه ، يسب ويشتم أمير المؤمنين على ملأ من الناس ، وعلى مسمع من المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالى . . ويرسل لامير المؤمنين بأمره ويقول فى كتابه : « لقد هممت أن أقتله » .

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فورا :

« أما والله ، لو أنك قتلته لقتلتك به » . . !!

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجل من عامة الناس ، رافعا عقيرته فى وجه الخليفة بكلمات تثير غيظ الحليم .

فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل :

«لعلك أردت أن يستفزنى الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم فى الدنيا ما تتقاضاه منى غدا عند الله

« ولـــكن ، لا . .

« قم عفا الله عنك » . . . !!

* * *

ومن أذكى وابلغ ما أداه — ابن عبد العزيز — فى سبيل انهاض راى عام امين على مسئولياته وقادر عليها . . . حسر ذلك المد الطاغى لدولة الشعر والشعراء التى كانت قائمة يومذاك .

لقد رأينا فيما سلف من حديث كيف اصطنع الامويون الشعراء لتزييف الحق ، وتمكين سلطانهم على حساب كل القيم والاخلاقيات ، حتى لقد كانوا عقبة كؤودا فى سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها . . والآن يتقدم البطل القديس ، مطلقا رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه وتبدده ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة نقية مشرقة بنور الحق وحده . .

لقد وقف يخطب الناس فقال :

« من اراد ان يصحبنا ، فليصحبنا بخمس او فليفارقنا . .

* يرفع الينا حاجة من لا يستطع رفعها . .
* ويعيننا على الخير بجهده . .
* ويدلنا على ما لا نهتدى اليه من الخير . .
* ولا يغتابن عندنا أحدا . .
* ولا يعرضن لما لا يعنيه . . »

ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، أن جميع كتب التاريخ التى تنقل هذا الخطاب ، تتبعه بقولها :

« فانفض عنه الشعراء والخطباء ،
وثبت معه الزهاد والفقهاء .. !! »

اجل .. فمعظم شعراء عصره ، وعلى راسهم — الاخطل ، والفرزدق ، وجرير ، لم يكن لهم مع هذه الخمس ولا مع واحدة منها رحم ولا قرابة .. !!

فهم اما مادحون بغير حق .. واما هاجون بغير حق أيضا .

وهم فى كلتا الحالتين يحرمون الراى العام رؤية الصدق بما ينشرون من اضاليل وبهتان .

والآن يجيئهم رجل عظيم ، لا حاجة به أليهم .

فليست له عداوات ، يحتاج للشعر فى تأجيجها ..

وليس له طموح يحتاج للشعر فى قرع الطبول له ..

وليست له شهوات يحتاج للشعر فى تزيينها ، ولا أخطاء يحتاجه لتبريرها ..

وليس له بالسلطة ولع ، فيحتاج للشعر فى حمايتها واستبقائها .

ثم انه لا وقت لديه ، ولا وقت لدى أمته لهذا الهذر العريض الذى ملأ به الشعراء ساحة العصر الاموى كله .

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الامة ، مكافأة على مدح أو اتقاء لهجاء . !

وراح — امير المؤمنين — يشرف بنفسه على امداد الراى العام بكل الصدق ، وبكل الحقيقة عن طريق منشوراته التى كان يرسلها للولاة ، ويبعث بها الى شتى الاقطار .

ولقد بدأ بدحر تلك الفاحشة التى كان الحكم الاموى يمارسها فى سفالة . وهى لعن الامام على كرم الله وجهه على المنابر .

وأمر أن يقرأ الخطباء مكان الكلمات الآثمة ... تلك الآيات الطاهرة :

* « ربنا اغفر لنا ، ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ،ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا انك رؤوف رحيم »

* « ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

* * *

لقد وضع الكذب ، ورفع الصدق ..

ودحر الباطل ، وآزر الحق ..

وكان ذلك اسهاما فعالا فى انهاض راى عام حصيف وامين ..

وأمير المؤمنين « عمر » لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها ادراك حاكم عادل صالح فحسب .. بل انه كذلك ليدرك جوهرها ادراك فيلسوف .

فهو لا يرى فيها مجرد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالامة، وتبادل المسئولية تجاه الدولة والمجتمع .. بل يمضى فى اتجاه التحليل النهائى

لجوهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك متمثلا فى ظفر كل فرد من الناس بحقه فى اختيار اقتناعه . . وحق هذا الاقتناع فى التعبير عن نفسه . فى غير زيف أو غموض .

ذلك أن الناس حين يزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، او رهبة ، فانه يستحيل فى نفس الوقت ، ولنفس السبب معرفة آرائهم .

ومادامت الآراء الصادقة هى مادة الشورى وأداتها ، فان اختفاء هذه الآراء اذن ، يعتبر وأدا للشورى والغاء لمهمتها .

وهنا تطل علينا عظمة القديس « عمر » وهو يضع اقتناع الناس — حتى حين يخالفهم ويخالفونه — موضع القبول والتقدير .

والوقائع التى تحكى ولاءه الوثيق لحرمة الاقتنـــاع تزدحم بهـــا الشهور التسعة والعشرون التى قضاها خليفة واماما . . لكننا نختار منها هذه الواقعة التى تكاد تعطينا التعبير النهائى لهذا الولاء .

لعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين انشقوا على الامام على كرم الله وجهه ، حتى اغتاله واحد منهم . . هؤلاء الذين تحولوا بعد ذلك ، وخلال العصر الاموى الى فرق كثيرة ، حملت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كثرا ذهب منهم خلالها الوف الضحايا .

وبالاضافة الى نشاطها المسلح هذا ، فقـــد كان لبعضها آراء وعقائد لا يزكيها قرآن ولا سنة .

ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابد الاواب لا ينسى حتى فى فتنهم هذه ، حقهم فى ان يكون لهم اقتناعهم ، ثم لا ينسى واجبه فى احترام هذا الحق لهم ، وواجبه فى اعطائهم فرصة التعبير عن رايهم بصوت

مرتفع ، مادام نشناطهم لا يتحول الى عمل ارهابى يستهدف سفك دماء الآخرين الذين يخالفونهم فى اعتقادهم واقتناعهم .

بل اننا سنراه يرى بحصـــافته الباهرة ، ان الســـبيل الامثل لصرفهم عن التآمر والارهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ، وتمكين الرأى الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبل أن يتحول داخـــل نفس صاحبه المقهورة الى حقد موتور ، وقذيفة رعنـــاء . . !!

وهكذا ، لا تكاد احدى تلك الفرق تتحرك فى الايام الاولى لخلافته مستأنفة تمردها المسلح ، حتى يرسل الى زعيمها هذا الكتاب :

« اما بعـــد . . .

«فقد بلغنى انك خرجت غضبا لله ولرسوله . . ولست اولى بذلك منى ..»

« فهلم اناظرك . .

« فان يكن الحق معنا ، تدخل فيه ، وان يكن الحق معك ، نراجع أنفسنا وننظر فى أمرنا . . !! »

ويقرأ الزعيم الثائر كلمات «القديس» فيخجل من نفسه ، ويلقى سلاحه . ويرسل مبعوثين الى عاصمة الخلافة ، يجريان مع الخليفة حوارا حول ما بينهما من قضايا وخلاف . ويجرى الحوار بينهما رائعا ، صادعا ، تتجلى خلاله موهبة « ابن عبد العزيز » فى رؤية الحقيقة ، وتوجيه المنطق ، وامتلاك الافئدة والعقول . .

ثم تكون عاقبة هـــذا الموقف العظيم ، أن تلقى تلك الفـــرقة المتمردة سلاحها ، بعد ما تبينت أنها فى عصر رجل جـــديد ينتمى لعصر

النبوة والوحى .. رجل يخجل الشيطان نفسه أن يشغب عليه ، أو يتحـــداه .. !!

على أن لهذه الواقعة ــ رغم دلالتها المفيضة ــ مثيلا آخر يكمل الصورة التى ترسم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الرأى وحـــرمة الاقتنــــاع .

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطق الخـــوارج وحججهم ، لم ير القوة قط سبيلا لدحض هذا المنطق واسكاته ــ بل راى أن قيام منطق أهدى ، وحجة أوضح وأصـــدق ، هو الســـبيل لاظهار الحق واخماد الباطل .

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة أخرى من الخـــوارج ــ هم « حرورية الموصل » ــ يسيحون فى البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم . ويكتب اليه حاكم الموصل ، يستأذنه فى قمعهم واسكاتهم ..

اقول : نلتقى بأمير المؤمنين يجيب واليه فيقول :

« اذا راوا أن يسيحوا فى البلاد فى غير أذى لأهل الذمة .. وفى غير اذى للامة .. فليذهبوا حيث شاءوا ..

« وان نالوا أحدا من المسلمين ، أو من اهل الذمة بسوء ، فحاكمهم الى الله .. »

بالله ، ما اعدله .. وما أروعه .. !!

انه لا يرى لنفسه حقا ــ اى حق ــ فى الحجر على آراء الآخرين ولا الوصاية عليها .

وهو كحاكم — لا يرى لنفسه أى حق فى التدخل الا حين يواجهه خطر مسلح يتهدد سلامة الدولة والامة .

أما دون ذلك ، فلكل رأى حرمته ، ولكل اقتناع حقه وحريته .

وهذا النهج الراشد السديد ، هو الذى مكن للشورى فى عهده تمكينا تكاد تنقطع دون بلوغه أنفاس كثير من الديموقراطيات . .

ولطالما قالوا له يومئذ : ان هؤلاء الخوارج ينشرون بين الناس افكارا زائفة ، ويلبسون الحق بالباطل ، وان تركهم يجوبون البلاد بعقائدهم هذه ، عمل ينذر بسوء مآب .

فلا يزيد القديس العادل على أن يذكر محدثيه ومحرضيه بآيات القرآن الكريم التى نهى الله فيها رسوله عن أن يسوس ضمائر الناس بالقهر والبطش :

« افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . . ؟

« وما أنت عليهم بجبار » . .

« انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

ولقد وقفت العواقب بجانبه ، واثبتت صدق رايه وذكاء تقديره : فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوما واحدا منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبد الملك ، والذين لم تزدهم كثرة ضحاياهم الا امعانا فى التحدى وضراوة فى القتال . . نراهم فى عصر هذا القديس الجليل يغمدون سيوفهم ، وينسون طوال عهد خلافته كل ما لهم عند الامويين من ترات ، وثارات . .

ــ وثالثا : المال وديعــة ..

وأمام المشكلات الاقتصادية ــ مشكلات الدخل والتوزيع ــ التى تحير الدول فى كل العصور والازمان ، لم تأخذ « عمر » حيرة ، ولم تعضله أزمـــة .

ذلك انه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تدبير أمرهما أعظم واهدى مما تدبر المع عبقريات التنظيم والاقتصاد .

والدولة المسلمه ــ يومئذ ــ لم يكن ينقصها المال .. انما كان ينقصها اتباع الحق فى تقاضيه .. واتباع العدل فى توزيعه ..

وقبل هذين ، بعث حرمة الاموال العامة وقداستها فى ضــمير الدولة ، بكل مسئوليها ... وفى ضمير الامة ، بكل أفرادها ..

أن موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من ايمانه بقول الله تعالى : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

فمصادر الانتاج ، والانتاج ، والثروة .. كل ذلك اذن وديعــة الله عند الناس .. دولا ، وامما ، وجماعات ، وافرادا ..

ولودائع الله هذه حرمتها التى تنأى بها عن التلف ، والسرف ، والبغى ، والاحتكار .

فاذا اكتسبت هذه الودائع صفة أخرى ووصفا آخر ، فصارت أموالا عامة ، فان حرمتها وقداستها تربوان وتزدادان .

ذلك أن معنى كونها « أموالا عامة » انها حقوق شائعة وثابتة لكل افراد الامة .. لكل ارملة فيها وكل يتيم .. لكل مسن وطفل ، ورضيع .. لكل فقير ، وعاجز ، ومريض ..

وهى بهذه المثابة . مثابة انها ، اولا : ودائع الله ، وثانيا : حق الناس ، جميع الناس .. تتمتع بحرمة بالغة وقداسة وثقى .

و « ابن عبد العزيز » يرى نفسه مسئولا عن اعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحق .

وانه ليعبر عن ذلك فى كلماته الفاصلة :

« انما أنا حجيج المسلمين فى مالهم » !!

كما يعبر بسلوكه تجاهها تعبيرا يبهر الالباب ..

انه يرسل خادمه يوما ليسخن له بعض الماء كى يتوضأ به فى يوم شات زمهرير .

ويعود الخادم مسرعا بالماء الدافىء ، فيسأله الخليفة : اين دفأته بهذه السرعة .. ؟

فيجيب الخادم : فى مطابخ المسلمين ..

وكان « عمر » قد توسع فى انشاء مطابخ عامة للناس ينفق عليها من بيت المال ..

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض أن يمس الماء جسده حتى يذهب الخادم الى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر الضحل جدا من الماء .. !!!

وانا لنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر أمور الدولة ليلا على مصباح يؤخذ زيته من بيت المال ، فاذا عرض له أثناء ذلك طارىء شخصى ــ ولو كان لا يستغرق سوى لحظات ــ فانه يطفىء

مصباح بيت المال ، ويوقد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهى من ذلك الطارىء .. !!

ولقد يرى البعض فى هذا المسلك نوعا من التزمت المغرق ..

ولقد يرون فى اعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام الورع من رئيس دولة عظمى ، كالدولة التى كان يحكمها — ابن عبد العزيز — أمرا غير مألوف .. وربما غير مستساغ ..

غير انهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتهم أن الذى كان يحرك اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها .

انما هو المعنى الكبير الذى يملأ ضميره ، ويشكل سلوكه تجاه الاموال العامة وحرمتها وقداستها .

وبعد ذلك يستوى أن يكون هـذا المال . عدل درهم من زيت مصباح .. أو ملء حجرة فضة وذهبا .. !!

انه يذكر ، ويذكر الناس دائما بالآية الكريمة :

« ومن يغلل ، يأت بما غل يوم القيامة » !!

والغلول عنده فى أحقر الاشياء ، مثلما هو فى اكثرها واخطرها .

وفيما يستأثر به لنفسه ، مثلما هو فيما يجود به على غيره .

بل حتى الهدايا ، رآها غلولا ، أو شيئا يشبه الغلول .

جاءته يوما هدية ، فاعتذر عنها .. فقيل له : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ..

فأجاب قائلا :

« لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رشوة » !!

* * *

ان موقفه من اموال الامة لعجيب . ثم عجيب .. !!

وان لها فى فؤاده الذكى التقى لحرمة تضاهى حرمة الايمان ذاته ، وحرمة التوحيد .. !!

يطلب منه أحد ولاته الاذن بمزيد من الشموع التى كانت دار الامارة تضاء بها ، ويضاء بها للامير وهو فى طريقه الى المسجد لصلاة العشاء والفجر .

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

« لقد عهدتك يا ابن أم حزم ، قبل أن تكون واليا ، تخرج من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ..
«ولعمرى ، لأنت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان فى فتائل اهلك ما يغنيك » !!!

ويكتب اليه وال آخر ، يطلب المزيد من الاقلام وورق الكتابة ، فيجيبه الخليفة ايضا :

« اذا جاءك كتابى هذا ، فارق القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة فى الصفحة الواحدة ..
« فانه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول أضر ببيت مالهم .. » !!

هنا بيت القصيد .. « أضر ببيت مالهم » !!

فالمشكلة ليست مشكلة قليل او كثير من الشموع والاقلام والاوراق .. فما من دولة يعجزها أن تملأ ارضها شموعا وأقلاما وورقا

انما المسألة فى وعى « الحاكم القديس » هى حرمة هذه الاموال

وقداستها .. هى تجنب التفريط والافراط فيها .. هى درجة الولاء لمسؤولية رعايتها وحفظها .. وبهـذا المعيار يصبح كل عبث بها مرفوضا مهما تكن ضآلة مقداره .

ذلك أن الاسراف الذى يتمثل اليوم فى شمعة او قلم .. سيتمثل غدا ـــ اذا استهين بأمره ـــ فيما هو أوخم عاقبة واسوأ مصيرا .

* * *

هكذا ارسى لحرمة الاموال قواعد راسخة من الاجلال والتقديس ونعود الى موقفه من « مشكلة الدخل والتوزيع » ..

قلنا : ان الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء .. انما كان ينقصها تقصى الحق فى جمعه .. والعدل فى توزيعه ..

ففيما يتعلق بالدخل .. نرى الخلفاء قبله ، وقد أرهق الترف والسرف ميزانية الدولة ، راحوا يعوضون ذلك بجمع المال بوسائل غير مشروعة ، وضرائب غير عادلة .

فأهل الكتاب الذين يعتنقون الاسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة الجزية فورا .. ولكن الدولة الاموية تأبى فى ذلك حكم الاسلام ، وتبقى الضريبة فوق كواهل الذين اسلموا ، مبررة ذلك بأنهم انما يسلمون فرارا من الضريبة .. !!

ويجيء الخليفة العادل فيرفض هذا التبرير الزائف ، ويعلن أن فرح الاسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الارض مالا وذهبا .

ويطلق امير المؤمنين كلماته المضيئة هذه :

« ان الله بعث « محمدا » هاديا ولم يبعثه جابيا » !!

ولقد ارسل اليه واليه على العراق « عدى بن ارطاة » : يقول « ان الناس قد دخلوا فى الاسلام افواجا ، حتى خشيت ان يقل الخراج » ...

فيجيبه الخليفة المقسط العظيم :

« والله ، لوددت أن الناس كلهم يسلمون ، حتى نكون انا وانت حراثين نأكل من كسب أيدينا . !!! »

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التى كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فألغاها جميعها .

بل وحتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، او تتعرض لبوار .

ها هو ذا يكتب لواليه على اليمن « عروة بن محمد » :

« اما بعد ...

« فقد كتبت الى تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل مال .. ان أخصبوا ، او اجدبوا ... ان حيوا ، او ماتوا . « فسبحان الله رب العالمين !! ثم سبحان الله رب العالمين ! !

« اذا أتاك كتابى هذا ، فدع ما تنكره من الباطل ، الى ما تعرفه من الحق ...

« واعلم أنك ان لم ترفع الى من جميع اليمن الا حفنة من كتم(١) فقد علم الله انى سأكون بها مسرورا . ما دام

---

(١) الكتم : نبات يخضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة .

فى ذلك ابقاء على الحق والعدل » . . !!!

ولعل بعضــــنا يأخذه العجب . . فبينما كان المتوقـــع منا ونحن نتحدث عن « الدخل » ان نشير الى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرة تضـــاعفه وتنميه ، اذا بنا نطرى سياســـة الخليفة تجاه الدخل العام ، لانه الغى الكثير من تلك المصادر والموارد . . ؟!

ولكن ، ما حيلتنا ، وهذه فلســـفة القديس المبـــارك الميمون « ابن عبد العزيز » . . ؟!

ان المســـألة عنده ليست مسئلة كثرة . . بل مســـألة وفرة . .

والوفرة ، تكون فى بركة الحلال المشروع ، لا فى كثرة الحـــرام المغتصب .

ولعل من واجبنا قبل ان نغادر هذه النقطة من الحـــديث ، ان نقول لبعض المؤرخين الذين يردون اضطراب مالية الدولة بعد موت أمير المؤمنين « عمر » الى سياسته الضرائبية هذه . .

من واجبنا ان نقول لهم : اغلب الظن انكم مخطئون . .

فلقد سارت الامور فى عهده كله على أتم نسق . ولم تكن تنذر باى عجز أو اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك ترهص وتبشر بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .

انما اضطربت فيما بعد ، حين غاب « البطل » عن مسرح العدالة والحق . . وعاد الترف والسرف والفساد ، وسياسة الســـطو مرة أخرى تعبث وتمرح ، بعد أن رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القديس !

على أن «الخليفة» حين الغى الضرائب الظالمة ، اتاح فى نفس الوقت موردا ثرا للدولة ، حين رد اليها جميع الارض والثروة التى كانت تحت أيدى الامراء .

وموردا آخـــر ، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصـــادر الدخل واثراها .. ذلكم هو وضع كل درهم فى مكانه وضرورته .. وتحريم كل تبذير ، وتجريم كل سرف .

اجل .. لقد كان ــ ولا يزال ــ وضع المال فى مكانه الصحيح ، وداخل ضرورته الملحة وحدها ، خير مورد وابقى مصدر ..

ولقد التزم « عمر » هذا النهج التزاما يكاد يكون مطلقا مع نفسه ومع أهله ، ومع ولاته ، ومع ذوى قرباه ، وأصـــدقائه ، والنـــاس اجمعين .

ها هو ذا احد المقربين اليه ، الاثيرين لديه « عنبسة بن سعيد » يذهب اليه يوما ، يسأله حاجة لنفسه .

فلنطالع جواب الخليفة له :

« يا عنبســـة ..

« ان يـــكن ما لك الذى عنـــدك حلالا ، فهـــو كافيك .

« وان يـــكن حراما ، فلا تضيفن اليه حراما جـــديدا ..

« أخبرنى يا عنبســـة ..

أمحتاج انت ..؟ لا ..

افعليك دين ..؟ لا ..

« اذن ، فكيف تطمع فى أن اعمد الى مال الله ، فاعطيكه

فى غير حاجة .. وادع فقراء المسلمين ؟!
« لو كنت غارما ، لأديت عنك غرمك .. او محتاجا لأمرت
لك بما يصلح شأنك ..
« فليكن لك فى مالك غناء ..
واتق الله ، وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل
ان يحاسبك أسرع الحاسبين » ... !!!

ان هذا الذى قاله لصديقه الحميم « عنبسة » كان يقوله لكل من يسأله ما ليس له بحق .. على ان هذا الذى هو حق فى تقديره ، لم يكن يتمثل عنده الا فى ضرورات العيش والحياة .

وهكذا اتيح له ان يحول شهقات البائسين الى بسمات متهللة ، وفرح غامر ، دون أن يحول السراة الى طبقة بديلة للبائسين ..

ان كل ما صنعه بهم انه اخذ منهم ترفهم وتخمتهم ، ثم تركهم يحيون كراما متواضعين ... !!

* * *

وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ، الى التوزيع .. فكيف راح الحاكم القديس يوزع اموال الامة ، واين كان يضعها ..؟؟

لقد رد المال الى وظيفته الحقيقية ، الى دوره الاصيل ومسؤوليته الاولى فى خدمة الامة وتغطية احتياجاتها :

لقد بدأ . فرسم حدود الكفالة الشاملة التى ستنهض بها الدولة تجاه مواطنيها جميعا فردا ، فردا .. وحدد بالتالى مسؤولية بيت المال تجاه تغطية هذه الكفالة كلها :

نرى ذلك فى كتابه الى ولاته :

« لا بد لكل مسلم من :

* مسكن يأوى اليه ..
* وخادم يكفيه مهنته ..
* وفرس يجاهد عليه عدوه ..
* واثاث فى بيته ..

« فوفروا ذلك كله ..

« ومن كان غارما ، فاقضوا عنه دينه » ..!!!

والتعبير بكلمة « مسلم » هنا .. لا تعنى قصر هذه المزايا بل الحقوق على المسلمين وحدهم . انما استعمل هذا الوصف لغلبته لا اكثر .. ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حق المواطنين جميعا — مسلمين وأهل كتاب ...

وأمر الخليفة ولاته ان يبداوا بتغطية حاجات اقطارهم . وما فاض وبقى يرسل الى الخزانة العامة .. ومن قصر دخل اقليمه عن تغطية حاجات أهله ، أمده الخليفة بما يغطى عجزه :

« استوعب الخراج واحرزه فى غير ظلم ..

« فان يك كافيا للناس ، فحسبنا .. والا فاكتب الى حتى ابعث اليك من المال ما توفر به للناس أعطياتهم » ...!!

* * *

وراح « المبارك الميمون » ينشىء فى طول البلاد وعرضها دور الضيافة ، يأوى اليها المسافرون وابناء السبيل ..

ومضى ، يرفع مستوى الاجور الضعيفة ..

وكفل كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم ورســـالتهم دون أن ينتظروا من أيدى الناس أجرا ..

وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامهم ، وحتى لا تضعف نفوسهم أمام اغراء الحرام ... !!

وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، امر لكل اعمى بقائد يقوده ويقضى له اموره على حساب الدولة ..

ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدولة ..

وامر ولاته باحصاء جميع الغارمين ، فقضى عنهم ديونهم ..

وافتدى اسرى المسلمين جميعا ، واغدق عليهم العطاء ..

وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم فى جميع اقطار دولته العريضة المتراميـــة ..

وكما فعل جده العظيم — عمر بن الخطاب — من قبل ، فعل هو ايضا ، فأمر ان يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس بعد فطامه ، حتى لا تتعجل الامهات فطام الرضعاء فيتعثر نموهم ، وتضمحل قواهم .. !!

ومن اجل الا يتحول عطاء الدولة الى فرصة للطامعين ، منع أن يجمع احد بين عطاءين ...

وحرم على جميع العاملين والموظفين ، الجمـــع بين راتبين مهما تكن الاسباب .

* * *

وهكذا تقسط الناس جميعا فى عهده العظيم ما افاءه الله عليهم من الخير ورزق .

وانا لنكاد تذهل امام ذلك الاجماع التـــاريخى الذى يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء فى عهد القديس الورع ، عمر بن عبد العزيز ، حتى لقد كان الاغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيرا يأخذها ، ويبسط يده اليها ... !!!

ذلك أن عدل « ابن عبد العزيز » لم يكف الناس حاجاتهم فحسب بل وملأهم شعورا بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات مهما تكن كبيرة وكثيرة، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحق، وبالعدل، وبعبده الصالح « عمر بن عبد العزيز » !!!

* * *

ـــ ورابعا : وحدة الأمة وسلامها ..

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعا ممزقا يتربص بعضه ببعض الدوائر .. ويتربص كله بالدولة الدوائر .. !!

فخلفاء بنى امية ، كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصـــبية والقبلية والاقليمية ، فيختص أحـــدهم بعطفه القيسية ، ويختص آخر اليمانية .. ويميز احدهم أهل الشـــام .. ويميز آخـــر أهل العراق .

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة الى القبـــائل وزعمائها ، فظهر من ينادى بسيادة أهل الحضر ـــ وفى مواجهتهم ، ظهر من ينادى بسيادة أهل البادية .

كذلك كان الخلفاء الامويون قد جنحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب ـــ أولئك الذين عرفوا بأسم « الموالى » ففرضوا عليهم

الجزية ظلما ، وحرموهم الحقوق التى يكفلها لهم الاسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الاسلام عاليا فى كل مجـــال .

كذلك كان هناك الفرق الكثيرة من شيعة وخوارج ومعتزلة منهم من يحمل السلاح فى وجه الدولة وفى وجه خصومه فى الرأى ، ومنهم من لا يحمل السلاح ولكنه يحمل الكلمة المسمومة .. ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحجاج .

ورث « القديس » المجتمع على هذا التمزق والتشتت ، فنفخ فيه من روحه الطاهرة انظافرة نفخة مباركة نفت عنه فى لحظة كل هذه الخبائث .. وطهرت لا شكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب ، بل وضميره وروحه أيضا . فشهد مجتمع الاســـلام فى أيامه اخاء وثيق التراحم .. واخذ كل حقه .. وقنع كل بحقه .. !!

فأما عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان .

وأما الموالى ، فقد وضـــع عنهم اصرهم ، وصحح وضـــعهم .

وأما النزعة القبلية والاقليمية ، فقد طواها بيمينه .

ولم يعد هناك قيسيون ويمنيون .. ولا عراقيون وشاميون .. ولا عرب وموال .

لقد عادت رحم الاسلام تنتظم جميـــع أبنائه كالعقد المنظوم ، وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة فى قول الله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة »

* * *

ولم يقف تصور « ابن عبد العزيز » لوحدة الامة عند هذه الحدود وحدها . . بل امتد ايمانه بالوحدة وفهمه لها الى وضع الاقليات فأكد دمجها فى جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .

ولقد رأينا فى رسالة مرت بنا من قبل ، أرسلها لاحد ولاته بشأن بعض الخوارج فقال له :

« ان ساروا فى الارض دون اساءة لاهل الذمة ، وللامة ، فدعهم » . .

وفى كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصـــاة بأهل الذمة ، اولئك الذين أسماهم الاسلام ــ أهل الذمة ــ توكيدا لما فى ذمة المسلمين لهم من عهد وميثاق . . . !!

لقد كانوا الى يوم استخلافه، يلاقون الكثير من العنت . ويقبعون تحت وطأة ضرائب ظالمة . . فما كاد يتولى أمر الامة حتى أصدر أوامره الحازمة بألا يؤخذ منهم سوى الضريبة التى شرعها الاســـلام لقـــاء توفير الأمن لهم .

وان موقفه من قضية « كنيسة يوحنا » بدمشق لمثل رائع وباهر على عمله العظيم والنبيل لدعم الامة كأمة ، بصرف النظر عن اختلافه الدين والجنس واللون فيها . . !

كان « الوليد بن عبد الملك » قد هدم جزءا كبيرا من كنيســـة يوحنا ، ليقيم عليه امتداد المسجد الاموى المشيد .

وحين ولى « عمر بن عبد العزيز » الخلافة . شكا اليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم .

ترى ، ما ذا يصنع أمير المؤمنين ؟

ان الجزء الذى تهدم من الكنيسة قد صار مسجدا .

وان اقصى ما يستطيعه حاكم عادل فى مثل هذا الموقف أن يعطى تعويضا سخيا ، أو أرضا بديلة .

لكن « ابن عبد العزيز » يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف عن اساليبنا .. انه اسلوب قديس جليل !!

وهكذا أصدر امره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، واعادة الارض التى أثيم عليها الى الكنيسة .. !!

ودارت الارض بعلماء دمشق وفقهائها ، فأرسلوا وفدهم لاقناع امير المؤمنين بالعدول عن قراره .

ولكن أمير المؤمنين، اصدر امرا جديدا حدد فيه اليوم بل الساعة التى يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم .. !!

ولم يجد العلماء سبيلا لانقاذ المسجد سوى أن يفاوضوا زعماء الكنيسة فى دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقا يرضونه ، ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم . ثم يذهب وفد من الفريقين لابلاغ الخليفة نبأ الاتفاق . فيحمد الله عليه ، ثم يقره ويرضاه .. !!

* * *

بم اذن نفسر ذلك الموقف الذى اتخذه من بعض اهل الكتاب من النصارى . حين أمر أن يعاملوا معاملة خاصة فيها تضييق عليهم ، واحراج لهم .. ؟؟

اننا فى ضوء موقفه العام الذى رأيناه ، لا نرى لموقفه الطارىء هذا تفسيرا الا ان يكون قد دعاه اليه سلوك بعض اولئك الذين عملوا كطابور خامس للامبراطورية الرومانية التى كانت تشن باسم الصليب — حروبا عدوانية على دولة الاسلام .

يزكى ذلك — فى رأينا — تلك الرسالة التى حملت أوامره بشأن النصارى . لقد ركزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد فى دورهم من سلاح .. مما يومىء الى وجود مؤامرة كانوا يهمون بها . على انه فى موقفه من هؤلاء ، لم يامر باتخاذ اى اجراء عنيف .

كل الذى امر به أن يميزوا بلباسهم الخاص .. وحتى هذا الاجراء يشير الى الريبة التى داخلت نفسه تجاههم ، فأراد ان يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلا لكشفهم .

فاذا جاوزنا هده الفئة التى فقدت ولاءها للدولة وللمجتمع ، وجدنا موقفه من المسيحيين عامة موقف الحارس الامين لحقوقهم ولعهودهم ولكراماتهم .

لقد اثار موقفه من الاديان ومن حقوق الاقليات فى دولته الراشدة انبهار واعجاب العالم الخارجى من حوله ، حتى ان امبراطور الروم « ليو الثالث » وقد كان خصما عنيدا لدولة الاسلام ، لا يكاد يبلغه فيما بعد نبأ وفاة امير المؤمنين حتى يبكى بكاء مرا ، أذهل حاشيته واساقفته ، فسالوه فى ذلك ، فأجابهم بكلمات تعتبر من أصدق واجمع ما قيل فى تأبين امير المؤمنين :

لقد قال :

« مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثيل ..!!

« وليس ينبغى أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله فى صومعته .

« انما انعجب لهذا الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيهـــــا ..!!

« ولقـــد كان حريا أن يعجل به ، فأهل الخير لا يلبثـــون مع أهل الشر الا قليلا » ...!!

أفكان هذا الامبراطور ليشهد فيه هذه الشـــهادة لو عرف عنه أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق أهل الكتاب فى عهده .. ؟؟

بل هل كان كبير أساقفة الرومان سيخف مسرعا حين علم بمرض الخليفة ، ليقيم الى جواره يطببه ويعالجه .. ؟؟

* * *

ونعود للعمل الذى عمله أمير المؤمنين من أجل وحـــدة الامة ، لنرى كيف كان فى نفس الوقت عملا فى سبيل سلامها الداخلى .

فالسلام الداخلى ، انما يتوفر بالقدر الذى يتجمع فيه شمل الامة وتتآخى أرواح بنيها .

ولقد انعم الله عليه وعلى أمته بما تمنى من وحدة الاسلام ..

فماذا عن السلام الخارجى ووضـــع أوزار الحروب التى كانت مشبوبة الاوار خارج الحدود .. ؟

لقد رأيناه يبدأ فى الساعات الاولى من خـــلافته باصـــدار امره للجيش الذى أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ثم رأيناه يفتدى جميع الاسرى على كثرتهم ويردهم الى ديارهم ووطنهم .

ثم نراه يضع حدا لكل الاعمال العسكرية التى كانت تقوم بها الدولة . . ويعلن أن الاسلام قد صار عزيزا منيعا بما تم له من فتوح ، وأن على جيش الدولة الا يتحرك بعد اليوم لقتال الا دفاعا عن حدود الدولة اذا هوجمت ، وعن سلامة الامة اذا تعرضت للاخطار .

واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التى أرسلها الى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم الى الاسلام ، فأسلم اكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى اليهم من أنبـــاء ورعه ، وزهده ، وعظمته وتقاه . .

كذلك كتب الى البربر ، فى أفريقية . . يدعوهم الى الاســـلام فدخلوا فيه أفواجا .

وكتب الى ملوك ما وراء النهر ، فأســـلم أكثرهم ورفعوا راية الاســـلام . .

أليس رجلا مباركا ذلك القديس . . ؟؟

* * *

ــ وخامسا : اسلوبه فى التنفيذ . .

ماذا كانت الامة ستفيد من ورعه وزهده وتقاه وعدله ، لو لم تكن كفاءته فى التنفيذ موازية لكفاءته فى حمل المسؤولية والاخلاص لها . . ؟؟

هنا نلتقى بجانب من أبهى وأغنى وأقوى جوانب شخصية ذلك القديس الفطن الحازم الاريب . . نلتقى به صاحيا يقظان . .

ان كل ساعات اليوم الاربع والعشرين منذورة لمسؤولياته . .

ليس منها سوى الوقت الذى تستغرقه صلاته وعبادته . .

والساعتين أو الثلاث التى يمنحها لنومه وراحته . .

أما بعد ذلك ، فلا وقت لديه الا لمسؤوليته المقدسة .

وله أسلوب فريد فى انجاز هذه المسؤولية وتنفيذ منهجها . .

فاللين ، والحزم . . والاناة ، والحسم . . والاشراف العميم ، واللامركزية . . والمطاولة ، واليقظة . . كل هذه تعمل « مجتمعة » لا « مختلطة » ــ فى اتساق فذ وتكامل عجيب . . !!

يبلغ به التعب يوما اشده ، فيسأله بعض خاصته أن يريح نفسه فيقول :

« ومن يجزى عنى عمل اليوم » . . ؟

فيقولون له : تنجزه فى الغد . .

فيجيب : « لقد فدحنى عمل يوم واحد حتى سالتمونى أن أريح نفسى ، فكيف اذا اجتمع على عمل يومين » . . ؟؟

انه لا يجرى حسابه الختامى كل شهر ولا كل اسبوع . . بل لكل يوم مسؤوليته وحسابه الختامى ، ولا يحيل يوما على آخر . لان لكل يوم مزدحمه وأحماله . . !!

وهو بالنسبة لعشرات الملايين التى تنتظمها دولته الواسعة . نداء النجدة . . لا تهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم فى ادنى الارض وأقصاها الا التفته وكأنه فى انتظارها وحدها . . !!

وصغار الامور عنده مثل كبارها . . لها نفس الاهتمام والمسارعة حمل اليه بريده يوما رسالة من الجيزة بمصر .

اما صاحبة الرسالة فاسمها « فرتونة السوداء » تشـــكو لامير المؤمنين . ان لها حائطا ـــ أى بستانا ـــ متهدما يتسوره اللصوص دجاجها ، وليس معها مال تنفقه فى هذا السبيل .

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو فى عاصمة خلافته بالشــــام حتى يكتب الى واليه على مصر « ايوب بن شرحبيل » هذا الخطاب :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، الى أيوب بن شرحبيل

« سلام الله عليكم . .

« أما بعد ، فان فرتونة السوداء كتبت الى تشــــكو قصر حائطها ، وان دجاجها يسرق منها ، وتسأل تحصينه لها .

ونفس البريد الذى حمل هذا الكتاب لوالى مصر . حمـــل كتابا آخر من الخليفة لفرتونة السوداء . .

« من عبد الله عمر بن عبـــد العـــزيز أمير المؤمنين الى فرتونة السوداء .

سلام الله عليك . .

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يقتحم عليك ويسرق دجاجك .

« وقد كتبت الى « أيوب بن شرحبيل » آمره ان يبنى لك الحائط حتى يحصنه مما تخافين ان شاء الله » . . !!

يقول ابن عبد الحكم الذى روى لنا هذه الواقعة الباهرة :

« فلما جاء الكتاب الى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى اتى الجيزة ، وظل يسأل عن « فرتونة » حتى وجدها

فاذا هى سوداء مسكينة ، فاعلى لها حائطها » .. !!

هذا خليفة قديس لم تفلت من رحمته وحسناته وعــدله وابوته شاردة ولا واردة .. !!!

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شىء ..

انظـــروا .. !!

انه يكتب لواليه على مصر ايضا :

« أما بعــد ..

« فقد بلغنى أن الحمالين فى مصر يحملون على ظهور الابل فوق ما تطيق ..

« فاذا جاءك كتابى هذا ، فامنع أن يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل .. !! »

بل انه ليبصر فى بعض جولاته اناسا يحملون مقارع ، فى اسفلها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر فى مجلســـه حتى يوقع قرارا يحرم استخدام هذه المقارع ..؟!

وتأتيه يوما سلتان كبيرتان مملوءتان من رطب الاردن فيسأل : ما هــذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الاردن الى أمير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلام جىء به .. ؟

فيقال له : على دواب البريد ..

فيهز راسه ، ويقـــول :

« لقد حملتموها فوق طاقتها .. بيعوا الرطب ..
واشتروا بثمنه علفا لدواب البريد التى حملته .. » !!

* * *

ويبهرنا لينه ، واناته ، وسعة صدره التى لم تعرف حدودا .

وفى تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تنبع من رحمته العميقة الاصيلة ـــ هذه الرحمة الذكية التى لم تكن تعنى مجرد الشفقة بالناس بل تعنى القيام بحقهم فى بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر فيهم ، وعلى هواجس النفس ، ونقاط الضعف ..

وانا لنتسمع هذا النبض الحنون النبيل من خلال دعائه الذى كان يضرع به الى الله كثيرا :

« اللهم زد محسن أمة محمد احسانا ، وارجع مسيئهم الى التوبة .. اللهم ، وحط من أوزارهم برحمتك » . !!

انه لا يتحسس الاخطاء ، ليعاقب عليها . بل ليعالجها فى رحمة وحنان .

وان اخطاء الناس لتشغله الى المدى الذى رايناه حيث لا ينظر اليها كحاكم ، بل كعابد . يصلى من أجل مغفرتها وانهاض ذويها .. !!

وهو لا يستبقى أناته وحلمه وسعة صدره وتسامحه ، داخل اطار ذاته ـــ كخلق شخصى له فحسب .. بل يحولها الى فلسفة للحكم ومنهاج .

ولطالما كان يوصى كل وال من ولاته بهذه الوصية :

« اذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى ، فلا تكوينه أبدا . . !! »

ولقد كان من حق حكام الاقاليم قبل عهده أن ينفذوا حكم القتل فيمن يشاءون عدلا ، أو ظلما .

فلما ولى ، حرمهم هذا الحق ، واصدر أمره الا ينفذ حكم القتل فى احد ، حتى يطلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رأيه .

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلا :

« والله لا أصلح الناس بهلاك دينى » !!

* * *

على أن رفقه وأناته اللذين وسعا امته جميعا ، لم يكونا مطمعا يغرى باستضعافه أو مخادعته ، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من تسول له نفسه عبثا ، أو فتنة . . !!

ولقد كانت فضائله كلها مهيأة على الدوام لحماية مواقعها واداء دورها . فلا يجيء موقف يتطلب الرحمة ، فيجدها غافية . . ولا موقف يتطلب الحزم ، فيجده كليلا . . !

ولقد نراه مع عامة الناس ينتفض كالعصفور تواضعا وحنانا ورحمة .

ثم نراه مع الجبارين اسدا يزار . . وجلالا يهاب . . !!

بعد أن يئس الأمراء الأمويون من استرداد اقطاعاتهم وثرواتهم

بالضراعة والحيلة ، اغروا واحـدا منهم وهو « عمر بن الوليـد بن عبد الملك » بالكتابة اليه مهددا متوعدا . . فكتب يقول :

« اما بعد ، فقد ازريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت
« بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل وعملت
« بغـير الحق فى قرابتك . وعمـدت الى أموال قريش
« ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلمـا وجورا
« وعدوانا .

« فاتق الله يا ابن عبد العزيز ، فانك توشك الا تطمئن على منبرك . . . » !!!

وفى نفس اللحظة التى يفرغ الخليفه فيها من قراءة هذا الخطاب المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خلق الحزم الصارم ليؤدى دوره تجاه الباطل الذى يتوعد الحق باسترداد سلطانه وبهتانه . . !!

ويكتب أمير المؤمنين رده :

« من عمر امير المؤمنين ، الى ابن الوليد . .

« سلام على من اتبع الهدى . .

« أما بعد ، فعهدى بك كنت جبارا شقيا ، والآن تكتب تتهمنى بالظـلم ، لاننى حـرمتك واهـل بيتك من مال المسلمين ما هو حق للضعيف والمسكين وابن السبيل . !

« الا ان شئت اخبرتك بمن هو اظلم منى واترك لعهد الله انه ابوك الوليد ، الذى حين كان خليفـة للمسـلمين استعملك عليهم صبيا سفيها تحكم فى دمائهم واموالهم . !

« فويل لك ، وويل لابيك ــ ما اكثر طلابكما وخصماء كما يوم القيامة ..

« واظلم منى واترك لعهد الله . من استعمل الحجاج بن يوسف . يسفك الدم الحرام ..

« واظلم منى واترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن ابى مسلم على جميع المغرب . يجبى المال الحرام .. ويسفك الدم الحــرام ..

« الا رويدك يا ابن الوليد . فلو طالت بى حياة لاتفرغن لك ولاهل بيتك حتى أقيمكم على المحجة البيضاء » ..!!

لنضع خطابه السابق الى « فرتونة السوداء » تجاه خطابه هذا الى ذلك الأمير الأموى المتجبر ، لنرى فى غير تعليق كيف كانت تعمــل فضائل هذا الانسان الباهر الجليل ..!!

ان الرجل الذى يجلس للناس على الارض وهو خليفة ..

الانسان ، الوديع ، العــذب ، يتحول الى اعصار مدمدم امام جبروت الباطل انى يكون ..!!

ومثل هــذا الموقف من الأمراء المتمردين . موقفه من امبراطور الروم .

لقد اخبر ان احد جنود الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية وكان مقاتلا شديد البأس ، قد وقع أســيرا فى ايدى الرومان . وحمل الى الامبراطور الذى حاول اكراهه على الخروج من دينه الاســلام ، ورفض الأسير .. فأمر الامبراطور ان تسمل عيناه .

بلغ النبأ — أمير المؤمنين — فهب حزمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلمه وكتب الى ملك الروم :

« أما بعـــد . .

« فقد بلغنى ما صنعت بأسيرك فلان . .

« وانى اقسم بالله . لئن لم ترسله الى من فورك لابعثن اليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندى » .!

ويعود الاسير الى وطنه واهله .

* * *

وهو ذو يقظة شاملة ، لا تتجلى فى الانجاز وحده — بل وفى رؤية القضايا ، وادراك الكليات والتفاصيل . .

ولو تتبعنا كتبه الى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته ما يبهر الألباب .

فلنقتنع ببعض فقرات من تلك الكتب :

* « اتبعوا ما أحل الله وحرموا ما حرم واعترفوا بحقه تعالى ، واحكموا بما أنزل .
* « افتحوا للمسلمين باب الهجرة .
* « دعوا النـــاس يتجروا بأمـــوالهم فى البر والبحر ، لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم .
* « أبيحوا أرض الحمى للمسلمين عامة ، وليـــكن حق الامير فيها كحق واحد منهم .

* « الخمر باب الخطايا ، فحرموا كل مسكر ».

* « كافحوا التطفيف فى المكيال والبخس فى الميزان .

* « لا تتجروا وأنتم ولاة ، فان الامير اذا اشتغل بالتجارة استأثر ، واصاب ظلما ، وان حرص الا يفعل .

* « لا تأخذوا من اموال الناس الا الحق الذى شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله — لا أفرق بين مسلم وأهل كتاب .

* « ضعوا السخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل اجره .

* « ردوا المزارع لما خلقت له ، فانما جعلت لارزاق المسلمين كافة .

* « لا تتخذوا على ابوابكم حجابا يمنعون ذوى الحاجات والمظلومين .

* « اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدعوا الناس يقول احدهم ، انا مضرى ، ويقول الآخر : انا يمنى ، فالمؤمنون اخوة .

* « الخيل عدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض فى غير حق .

* « امنعوا النساء أن ينشرن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى .

* « قاتلوا هواكم ، كما تقاتلون أعداءكم .

* « سددوا المخالفين ، وبصروهم ، وارفقوا بهم ،

وعلموهم ، فان اهتدوا كانت نعمة من الله وفضلا . .
وان ابوا فتحروا الحق فيما تنزلون بهم من عقاب .

* « اكثروا من دعاء الله بالعافية لانفسكم ولمن ولاكم الله أمره ، فان لكم فى اصلاحهم أكثر مما لهم . .
وعليكم من فسادهم أكثر مما عليهم .

* « تعاهدوا حجابكم ورؤساء حرسكم وشرطكم والعاملين معكم ، واكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا أنهم لا يرتكبون غشما ولا ظلما .

* « لا يأخذنكم الزهو بنظر الناس اليكم ، ولا بحديثهم عنكم . وضعوا اعينكم على الذى هو أبر وأتقى واخلص لله رب العالمين .

* « اتركوا اعمالكم عند حضور الصلاة ، فان من اضاع الصلاة كان لما سواها أضيع .

* « تحروا الحق ، ثم اعملوا به بالغا ما بلغ بى وبكم . .
حتى وان ذهب بحياتنا وبمهج أنفسنا . . » !!

هذا نموذج من أوامره وتوجيهاته يكشف عن يقظة شاملة لتفكيره ومشاعره وارادته .

يقظة تعطى الجزئيات نفس الاهتمام الذى تعطيه الكليات !!

وبهذا المنهج الذى يستمد من قداسته ، وفطنته ، وعزمه قطع

ابن عبد العزيز طريقه وثبا ، متخذا من الانجاز وسرعة الحركة طابعا لمسيرته المباركة .

لقد كانت مسؤوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس ، ومشكلات الدولة والامة لا تنتظر من يكشف عنها أو يفلسفها، بل تنتظر من يواجهها بذمة وصدق وحسم ، ففيم اذن يكون تلفت أو انتظار..؟!

ومن هنا انطلق ينجز ، وينجز ، وينجز .. معطيا كل مسؤول مسؤوليته ، آمرا اياه أن يمضي بها في شجاعة وحكمة وأمانة .

أجل ، لقد كان ينهى ولاته عن أن يكونوا امعات أو متواكلين ، هيابين .

وانه ليرضى اعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مقبلين على مسؤولياتهم فى شجاعة ، منجزين اياها فى حزم، ميممين وجوهم وافئدتهم صوب الحق وحده ، لا يعدلون به أحدا حتى الخليفة نفسه .

« اذا أردلت اليكم امرا يخالف الحق ..

« فاضربوا به الارض ..

« واستمسكوا بالحق وحده » !!!

وكان يعينهم على قهر التخوف من المسؤولية ، بمنحهم قدرا كبيرا من اللامركزية ، والاستقلال .

أرسل يوما الى احد ولاته أمرا ، فارسل الوالى يستوضحه ببعض التفصيلات . فتجهم الخليفة وكتب اليه من فوره :

« أما بعد ..

فأراك لو ارسلت اليك : ان أذبح شاة ووزع لحمها على الفقراء ، لارسلت الى تسألنى : ضأنا أم ماعزا ؟ .
فان أجبتك . . أرسلت الى تسألنى :
كبيرة ، أم صغيرة .؟
فان أجبتك ، ارسلت تسأل : بيضاء ، أم سوداء . ؟ !!
« اذا أرسلت اليك بأمر . فتبين وجه الحق فيه . ثم أمضه » . !!

انه لا يريد أن نتلكأ حقوق الناس وتتعثر فى شكليات عقيمة .

انه يجد نفسه مسؤولا عن كل خطأ ، او مظلمة تبقى دقيقة من الزمان . . ومن ثم فهو يقطع الايام وثبا وراء كل خطأ حتى يصلحه ، ووراء كل حق حتى يؤديه لصاحبه . . !!

وبمثل هذا الحسم والانجاز . كان يغير كل وال ، أو قاض ، أو أمين أو رئيس شرطة، أو مسؤول لا تثبت التجربة السريعة الصادقة أنه فى مكانه . . واذا خدع فى أحد فظنه للمنصب أهلا ، ثم تبين له انه غير أهل ، لم ينظره لحظة تحت تأثير حرج أو مجاملة .

ولقد ملأت يقظته وانجازه بلاد الدولة أعمارا وحياة ، وفجرت طاقات الناس تفجيرا .

وعلى الرغم من انه كان يرى القدوة التى يقدمها للناس جميعا . تفعل فيهم فعل السحر ، وتجرى من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم فى العروق ، فانه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه . . فنراه يتنقل فى مواطن كثيرة متخفيا ومتنكرا يسأل ، ويفحص . .

ولم تكن فى الحياة بأسرها متعة تشيع فى روحه البهجة والغبطة مثلما يرى أو يسمع أن ظلما قد دحض .. وان عدلا قد نهض .. وان حقا قد رد لصاحبه فى غير جهد منه ، أو الحاف .. !!

ركب يوما فى احدى جولاته هذه ، مصطحبا معه مولاه «مزاحم» حيث خرجا الى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين .

وهناك راح وهو متنكر فى ثيابه يسأل الغادين منم والرائحين .

ومن بين هؤلاء رجل فى احدى القوافل ، اقترب منه «عمر» وسأله: « كيف تركت الناس فى بلدك ..؟ »

فقال الرجل : ان شئت جمعت لك خبرى ، وان شئت بعضته تبعيضا .. !!

فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه — اى ، اوجزه .

قال الرجل :

« تركت البلاد ، الظالم بها مقهور .. والمظلوم منصور . .والغنى موفور . .والفقير مجبور » ..

وسارع «عمر» بالانصراف بعيدا عن محدثه قبل أن تشى به انفعالاته ودموع الشكر التى راحت تتحدر من مآقيه .

وولى مسرعا . مسرعا . وقلبه الشكور ، ولسانه الذكور يضرعان الى الله بآيات الحمد والثناء .

والتفت الى « مزاحم » وقال له :

« والله ، لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل ، لأحب الى مما طلعت عليه الشمس » . . . ! ! !

كتب للمؤلف

مطبعة دار العالم العربى

٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة تليفون ٩٠٦٧٠٦





هذا الكتاب

علينا – نحن المسلمين – أن نعيد القرآن العظيم إلى مكانه العالى فى قلوبنا وحياتنا ، ونشد على راية الأسلام بسواعد قوية متفانية ..

وعلينا أن نفيد من كل فرص التقدم النظيف دون أن نسلم رقابنا للأغلال ، ودينينا للضياع ، وروحانيتنا للجفاف ..

علينا أن نذكر أن دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لايزال قائما ، وأن الأسلام الذى نحمل لواءه لم ينته ، ولن ينتهى دوره فى ترشيد الحياة وهداية البشر ، كما لن تنتهى حاجة البشرية إليه ؛ لأن عظمته الفريدة ماثلة فى أنه يقدم مع حضارة المادة حضارة الروح ..

وأخيرا ، علينا أن نعمق ايماننا بأن الأسلام

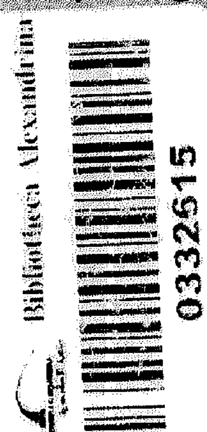
دين ، ودولة ..

حق ، وقوة ..

ثقافة ، وحضارة ..

عبادة ، وسياسة ..

– من الكتاب –



الناشر : دار ثابت للنشر والتوزيع ٩٢ أ شارع محمد فريد القاهرة – ص ب